خلق المسلم

من خلال أحاديث الدعوة

د/ محمود محمد محمد عمارة

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

عندما كنت عضوا بهيئة التدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة. . أسند إلىّ تدريس مادة «أحاديث الدعوة».

وكنت قبل المحاضرة ألخص مرامى الحديث فى نقاط. . أقوم بتبسيطها للطلاب والطالبات. . ثم محاولة إسقاطها على الواقع المُعاش. . تبصرة وذكرى. . ليحسن طالب العلم قراءة الواقع على ضوء الحديث الشريف. .

ولما كنت أعيش عندئذ بمكة المكرمة وحيدا. . بعيدا عن الأسرة فقد تعودت فور عودتى من المحاضرة أن أبسط هذه الأحاديث فيما يشبه المقالة. . فتكونت لدى هذه الصفحات التى بين يديك. . والتى كتبتها فى ظروف لم يكن المزاج فيها معتدلا على طول الخط.

إنها على أى حال محاولات. . تسدد. . أو تقارب. . ومع هذا فأغلب الظن أنها فوْق ما فيها من أفكار. . ربما كانت محققة لما أرجوه من تدريسى دائما. . وهو:

أ ـ تدريب الطلاب على الاستنباط .

ب ـ وربط النص بالواقع. .

جـ ـ إبراز معالم الأخلاق الإسلامية من خلال التعليق على الحديث .

وعلى الله قصد السبيل

د. محمود محمد محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تحت راية التوحيد

عن عمرو بن العاص قال:

سمعت رسول الله ﷺ جهارا. غير سرٍّ يقول: «**ألا إن آل أبى - يعنى فلانا - ليسوا لى بأولياء. إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»[1].

تمهيد:

أحيانا تستبد بالإنسان الحَيْرة بين عقله وقلبه:

عقلُه يتجه به ذات اليمين.. إيثارا لحُسْن العاقبة على شهوة النفس الغالبة.. ولكن قلبه يشده إلى اليسار.. فى الاتجاه المعاكس:

إن فيه ذكريات مترسبة فى أعماقه.. وفيه عواطف تربطه بأعزاء عليه..

كل أولئك قد يضغط عليه.. فَيؤْثِر المنفعة المائلة.. لأنها عاجلة.. بينما يستدبر المنفعة الفاضلة.. لأنها آجلة..

وقد تطول المعركة فى كيان الإنسان.. قبل أن يتخذ فيها قرارا حاسما.. ولَئِنْ جاز ذلك الصراع بين الصحاب فى شأن من شئون الدنيا.. فإن الأمر ليختلف إذا كانت القضية قضية العقيدة:

فإذا كانت العقيدة طرفا فى هذا النزاع.. فإن العقيدة لابد أن تخرج منتصرة من حلبة الصراع.. وتُنَحَّى العواطف جانبا ليكون الولاء أخيرا للحق الأعلى..

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

(١) مسلم. باب موالاة المؤمنين ومقاطعة الكافرين جـ٣/ ٨٧.
(٢) التوبة: ٢٤.

ولقد جاء الحديث الشريف. . الذى نحن بصدد التعليق عليه. . ليكون الولاء كله لله ولرسوله وللمؤمنين فى مواجهة الحياة كلها. . فى محاولة لتوحيد الأمة تحت راية الإسلام. من حيث كانت الوحدة سبيلها إلى سعادة الدنيا والآخرة.

أهمية القضية :

ولأهمية القضية التى يركز عليها الحديث الشريف. نرى عمرو بن العاص راوى الحديث رضى الله عنه يركز على أنه سمعه جهارا. . صريحا. . ثم يذهب بما قد يبقى فى النفس من وهم فيقول: غير سرٍّ. . لِيتَلَقَّى المتلقى مضمونه بما يليق به من تدبر وإذعان. .

المقصود بالحديث :

قيل إن المكنى عنه هو: الحكم بن أبى العاص. ولم يسِّمه ﷺ باسمه فرارا من فتنة قد تحدث من وراء التصريح باسمه. . وما دام المطلوب قد تأكد بمجرد الكناية فلا داعى للتصريح. .

ومن دروس الحديث :

أعلن الرسول ﷺ براءته من أقربائه ممن بقى على الكفر منهم.

وكان يكفى هذا القدر ليتم المقصود. . ولكنه يركز على القضية فى جانبها الإيجابى فيقول:

[إنما. .] وبأداة القصر. . «**إنما وليى الله وصالح المؤمنين**» تأكيداً وتشديداً حتى لا يبقى هناك أدنى عذر لمن يتجه بقلبه إلى كافر. . وإن كان أباه أو ولده.

القدوة
وصعوبة التكليف

لقد كان ارتباط العربى بقبيلته.. وبرحمه.... من القوة بحيث صار واحدا من خصائص الأمة العربية التى كان أفرادها على ما يقول شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

فإذا جاء اليومُ الذى يُكَلَّفون فيه أن يفاصلوا هؤلاء الأقرباء.. ليكون النسب الجديد هو: أخوةُ الإسلام.. فما أصعب التكليف إذن..

ولكن القيادة الرشيدة تعطى القدوة الحسنة من نفسها.. فيبدأ ﷺ بتطبيق الأمر الصارم على نفسه..، ثم يعلن ذلك على الملأ.. فكان طبيعيا أن يتنافس المتنافسون فى تعميق أخوة الإسلام.. فوق لحمة النسب. وواشجة القربى.

إن الرسول ﷺ وهو طبيب النفوس. يَعْلَم أن من الأمور مالا يعين الطبع على تنفيذه.. ومنه ذلك النهى الصارم عن موالاة الأقرباء من الكفار.. فكان لابد من هذه المبادرة لتحقيق الوحدة الإسلامية.. بالتى هى أقوم.. والتى هى أحزم.

ومن ناحية أخرى فإن القيادات الكافرة بما لديها من إمكانات التمويه والتزوير.. قد تملك عنصر التأثير فى قلوب ضعاف الإيمان.. فلابد إذن من فطم النفس قبل أن تقع فى الشَّرَك المنصوب غفلة أو جهلا.

من رحمة الرسول بالأمة

وهذا التوجيه الكريم على صعوبته.. هو فى نفس الوقت مظهر من مظاهر رحمته ﷺ بأمته:

فهو ينحّى القيادة العفنة.. قبل أن تنحدر بنا إلى الهاوية.. بحكم ما تتقنه من وسائل التمويه.. والضغط..

إنها فى النهاية كما قيل: [كالنُّحاس المطلى بالذهب: إن مسسته برفق كان

ذهبا: له وميضه ولمعانه. ولكنك إن وضعته على المحك خرج نُحاسا]!

وقد علّمنا ﷺ هنا الا يخْدعنا مظهر النحاس المطلى بالذهب.. فالسم فى العسل..

وما ظنك بقيادات زائفة لا تؤمن بأن لهذا العالم ربا.. ولا تثق بحياة هى الحيوان.. بعد هذه الحياة!

ولك أن تتصور ما يَفْرضه ذلك الوضع المنحرف عليها من تمزّق وقلق.. يترك آثاره ولا شك على كل غافل ذاهل. يدور فى فلك القوى الماكرة.. مدفوعًا برغبته فى المنفعة العاجلة.. تلك المنفعة التى يغرى بريقها ضعاف النفوس فيسقطون فى امتحان الرجولة.

من مقاييس الإيمان:

والحديث الشريف يضع بين أيدينا مقياسا من مقاييس الإيمان.. على ما يقول الشيخ الخضر حسين رحمه الله تعالى:

[من يشرح الله صدره للإيمان لا ترتاح نفسه لصحبة الجاحدين. ولا يجد ودادهم إلى داخل نفسه سبيلا].

وقد يُضطر المؤمن أن يلاقيهم ويشاركهم فى بعض الأمور الحيوية أو الاجتماعية. فليكن اتصاله بهم على قدر الضرورة.

فإن رأيت شخصا يصاحب جاحداً بآيات الله. وأحسست من لحن خطابه أن الصداقة بينهما محكمة.. سبَق إلى ذهنك أن منشأ هذه الصداقة: التشابهُ فى زيغ العقيدة على ما يقول تعالى: **﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُم...﴾**[1].

واقعية الإسلام:

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ

(١) المجادلة: ٢٢.

اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

والآية الكريمة أساس الحديث الشريف . . . وكلاهما يؤكد واقعية الإسلام فى تعامله مع النفس البشرية:

إن الدماء بين الأقرباء لن تتحول ماءً كما قالوا. . وإذن فلا حرج أن يحسن المرء إلى ذويه. وإن كانوا كفارا. . استجابة لحاجة من حاجات الفطرة. .

لكن القيادة لابد أن تكون فى جماعة المؤمنين. . والولاء لها. . ودائما. . وذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

وعندما أتم إبراهيم عليه السلام كلمات ابتلاه الله تعالى بها قال له ربه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2]

إنكم أنتم وأقرباؤكم شركاء فى رزق الله تعالى. أما أن يكونوا فى الناس أئمة. . فذلك ما لا يكون.

من توجيهات الرسول :

وفى سيرته ﷺ ما يحدد المعالم. . معالم الصلة بيننا وبين المخالفين فى الدين. . وبخاصة من يمتُّون إلينا بصلة القربى.

إن الجسور لتظل ممتدة بيننا. . وبين أهلينا. . مهما كانت شقة الخلاف بعيدة. . بعيدة. . لكن تبقى الكلمة الأخيرة للعقيدة. . حين تتصادم المصالح. . وتتشابك المنافع. . وعندئذ. . فلا مساومة على العقيدة. . التى هى سر وجودنا. . ومستراد آمالنا فلتبق دائما ربوة النجاة. .

---

(١) لقمان: ١٤: ١٥.   (٢) البقرة: ١٢٣.

الأعمال
بين الكم.. والكيف

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان فى الجاهلية: يصل الرحم. ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه.. إنه لم يقل يوما: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين**»[1].

تمهيد:

على كثرة ما وارت الأرض من رجال.. طواهم النسيان.. لكن يبقى السَخِىّ على ألسنة الناس مذكورا مشكورا.. ذلك بأن الأعمال الكبار لا تعلو.. وتناطح السحاب إلا على دعائم من الأخلاق.. وفى طليعتها: الصبر.. والكرم..

ولقد كان السخاء واحدا من مقومات الأمة العربية قبل الإسلام.. وبعده.. وهو الذى أنبت لها فى العالمين أجنحة طارت بها إلى حيث ترمى بها همم عالية..

سجية تلك فيهم غيرُ محدثة — إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فلما جاء الإسلام.. سقى الله تعالى به شجرة السخاء.. فأينعت.. ثم أثمرت.. ثم صارت «إنفاقا» يراد به وجه الله تعالى..

وهذا رسول الله ﷺ: لقد كان سخيا إلى حد يعطى فيه عطاء من لا يخشى الفقر:

وإذا سخوت.. بلغت بالجود المدى — وفعلت ما لا تفعل الأنواء

ولم يكن ﷺ فقط سخيا.. لكنه أضاف للجود بعدا آخر وهو: حبّه للأسخياء.. ولقد عبر عن ذلك بإطلاق سراح سفّانة بنت حاتم الطائى.. لا لأن أباها فقط كان كريما.. ولكن لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

---

(١) رواه مسلم جـ٣ ـ باب من مات على الكفر.

دوافع السؤال :

ولهذا. . كان منطقياً أن تسأل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها. . عن هذه الأعمال الكبار. . متأثرة بروح الإسلام. . ونبّى الإسلام. . ولتعلم مصير أعمال بهرت الناس. . وما زالوا بها معجبين. . فلعل فى الجواب ما يضع النقاط على الحروف. . ويميزُ الله به الخبيث من الطيب. . فى ضوء ميزان الإسلام. . الذى يحدد المعالم. . ويرسم الغاية.

لماذا ابن جدعان؟

ومما يستلفت النظر هنا. . أن أم المؤمنين رضى الله عنها لم تسأل سؤالا عاما. . وإنما ركزت بالذات على ابن جُدعان.

ولعلنا نلخص الأسباب فيما يلى:

أولا: عبد الله بن جدعان رمز من رموز العرب البارزين:

ففى داره أُبْرِم حلف الفضول الذى حقن الله به دماء الأبرياء. . هذا على المستوى السياسى.

أما على المستوى الاجتماعى: فقد بلغ فى السخاء حدا حمله على أن يصنع جفنة ضخمة لا يُرقى إليها إلا بسلم. ووصل فى صلة الرحم حدا سارت بذكره الركبان.

ثانيا: كان ابن جدعان من «بنى تميم بن مرة» فهو قريبها. . وإذن فسؤالها لون من صلة الرحم كفاء ما كان يتميز به من صلة الرحم.

ثالثا: كان السؤال استجابة لطبيعة الكرم المستكنة فى قلب أم المؤمنين رضى الله عنها. . والتى تجعل من أرواح الكرماء جنودا مجندة ما تعارف منها ائتلف.

المرأة العظيمة

وراء الرجل العظيم

كانت عظمة أم المؤمنين رضى الله عنها فى سؤالها مترامية الأطراف:

أ- فهى مثال المرأة: تتلقى العلم من مصدره الموثق.. ثم تتحمل مسئولية البلاغ.

ب- وهى عنوان للزوجة التى تتعاون مع زوجها على البر والتقوى..

جـ- ثم رمز من رموز طلب العلم.. والاهتمام بقضايا الأمة التى تحتل مساحة اهتماماتها.

معنى الجواب :

ولقد كان جوابه ﷺ مسكتا:

إن عمله لا ينفعه فى الآخرة.. لأنه لم يكن مصدقًا بالبعث والجزاء فلم يُؤتَ الرجل من قبل عمله.. فقد كان عمله كبيرا.. غَزِيرَ الْفائدة. فى الدنيا.. ولكنه كان بالتعبير الاقتصادى: شيكا.. بلا رصيد! وحامل الشيك المزيف: قد ينتفع به مؤقتا.. وفى الوقت الذى يؤمِّل فيه الخير..

ولكنه فى البنك.. سراب! بل عذاب.. لقد كان الرجل كنزا.. ولكنه كان تحت التراب!!.. فلا قيمة له.. ولا جدوى منه .

مغزى الجواب :

وكان الجواب النبوى الشريف منطلقاً من قاعدة الإخلاص التى لا يُقْبَل عمل إلا بها:

وذلك وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[1].

(١) البينة: ٥

ذلك بأن مَدار قبول العمل على ركيزتين:

صلاح النية.. وكبَرِ الهمة..

فصلاح النية.. يحدد طريق السير.. وهو الصراط المستقيم دون طرق البشر جميعا..

أما كبر الهمة فإنه يحدد الغاية التي تتجاوز أهداف الأرض.. ليكون العمل لله تعالى وحده.. **﴿فَمن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحاً وَلا يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً﴾**[1].

ومتى توفر العاملان كلاهما.. استجمع القول والعمل شرائط الصعود إلى ساحات القبول. وذلك قوله تعالى: **﴿إِلَيْه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُه﴾**[2].

من بركات الإخلاص:

وبالنية الخالصة تحصل على ثلاثين درجة بتَحِّيتك لمسلم قائلا: السلام عليكم ورحمة الله. وإذا ملأت الدنيا كلها أعمالا ضخمة بلا إخلاص.. فلن تحصل على حسنة واحدة.

وكان عمر رضى الله عنه يعبر عن أهمية الإخلاص - وذلك فى موسم الحج - بقوله: الركب كثير.. والحاج قليل!

ومَن دروس الإخلاص ما روى أن رجلا قال لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه: علمنى كلمات جوامع نوافع. فقال:

[اعبد الله لا تشرك به شيئا. ودُر مع القرآن حيث دار. ومن جاءك بالحق فاقبل منه. وإن كان بعيدا بغيضا... ومن جاءك بالباطل فاردده. وإن كان حبيبًا قريبا. واطلب قلبك فى مواطن ثلاثة: عند سماع القرآن.. وفى مجالس الذكر. وفى أوقات الخلوة. فإن لم تجده فى هذه المواطن.. فسل الله أن يمن عليك بالقلب فإنه لا قلب لك!].

---

(١) آخر الكهف.

(٢) فاطر: ١٠.

من دروس الحديث الشريف

والحديث الشريف ـ من خلال جوابه ﷺ ـ يطرح مجموعة من القضايا أمام الفكر الإسلامى ليدور حولها بالبحث والنظر:

أ ـ أهمية الإخلاص لقبول العمل.

ب ـ هل ينتفع الكافر بعمله فى الدنيا؟

جـ ـ ما مصير عمل المسلم إذا لم ينطلق من نية خالصة؟

أهمية الإخلاص:

فى غياب الإخلاص يضيع كل شىء:

وكما أن درهم الحديد ودرهم الذهب سيان.. فى الميزان.. فإن العمل والترك إذا لم تسبقهما نية خالصة فهما أيضا سيان. وسيان: من يفعلُ الحق رياء.. ومن يتركُه حياء.. حيث لا نيّة من وراء الفعل والترك..

وحتى إذا صار المسلم من الصلاة.. قوسا.. ثم صار من الصيام.. وتَرا.. فلن يُقبل منه دعاء.. إذا لم ينطلق الدعاء من قاعدة الإخلاص.. حتى اللقمةُ من الحرام يصيبه شؤمها.. فيُحرمُ من التوفيق أربعين يوما.. وما أكثر النماذج الرديئة التى حرمت الإخلاص ولم تربط عملها بهدف رفيع فحرمت الخير كله: هذا رجل يصيب فى قوله وفعله.. ولكنه لا يقصد.. وآخر من شكله إذا أخطأ قصد..

وأسوأ من الاثنين: من إذا نطق نطق هذرا. ونظر شذرا.. وأضمر غدرًا.. ومع ذلك يطلب عذرا! وقد نحكم على العمل بالصلاح.. مأخوذين بظاهره..

وقد نجد أنفسنا أمام فضائل إنسانية.. يسلّط عليها الإعلام أضواءه لفرضها بالقوة.. ولكنها باسم الإسلام وفى غيبة النية الصالحة تصير فضائل عشوائية.. لا جذور لها.. ومنها فضائل ذلك الرجل الذى عناه الشاعر بقوله:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت ... يداه كالمزن حتى يُخجل الدِّيَمَا

فإنها فلتات من وساوسه: ... يعطى ويمنع: لا بخلا ولا كرما!!

مسؤولية المسلم :

واجب المسلم هنا أن يعتز بشخصيته. وبدينه الذى أكرمه الله تعالى به فلا تمتدُّ به العين إلى ما متع الله به الكافر من نعيم زائل.. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾[2].

يقول المفسرون: يخبر الله تعالى عن أعمال الكفار التى عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التى عملوها لله. بأنها فى ذهابها وبطلانها. واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذى هو أدق الأشياء وأخفها. إذا اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد الهبوب فإنه لا يُبقى منه شيئا. ولا يُقْدَرُ منه على شىء يذهب ويضمحل. فكذلك أعمال الكفار ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ولا على مثقال ذرة منه. لأنه مبنى على الكفر والتكذيب.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ حيث بطل سعيهم. واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك: أعمال الكفار التى عملوها. ليكيدوا بها الحق فإنهم يسعون ويكدحون فى ذلك. ومكرهم عائد عليهم. ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً].

وعلى هذا الأساس.. اختلفت مواقف البشر.. وتنوعت عاقبتهم تبعا لذلك:

يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3].

---

(١) التوبة: ٥٥. (٢) إبراهيم ١٨ (٣) الشورى ٢

يقول بعض العارفين: ما هى الزيادة هنا ... إنها الزيادة فى اطمئنان القلب.. وإلا فصور الأعمال الظاهرة واحدة.. فالصلاة بكيفيتها هى.. هى.. لكن الزيادة فى الحب والود. ثم ضرَب لذلك مثلا بجماعة ذهبوا لعيادة مريض:

فصورة الزيارة واحدة. ولكن البواعث القلبية تختلف: فهذا يَرُدّ جميلا سابقا.. وذاك يجامل رفعا للملام.. وثالث يرجو ثواب الله تعالى.

ونذكر هنا ذلك الموقف:

دخل على رضى الله عنه المسجد فوجد رجلا ينقر صلاته نقرا. فخفَقَه رضى الله عنه بالدرة. وطلب منه إعادة الصلاة.. فلما أعادها مطمئنا بها. سأله الإمام قائلا: هذه خيرٌ.. أم تلك؟

وكانت المفاجأة أن قال له الرجل: بل تلك.. لأننى فعلتها مخلصا.. أما هذه فخوفا من درتك!!

هل ينتفع الكافر بعمله فى الدنيا:

فَتَحت إجابته ﷺ الباب أمام الفكر الإسلامى ليبحث عن الفائدة التى يجنيها الكافر من عمله فى الدنيا.. بعد أن حُرم ثمرتها فى الآخرة:

قال القاضى عياض[1]:

انعقد الإجماع على أن عمل الكافر لا ينفعه فى الآخرة. ولا يثاب عليه. وإذا كان قد نَفَى أن يُخفف عنه العذاب.. إلا أنه قرر أن بعضهم أشد عذابا من بعض بحسب تفاوت جرائمهم.

وقال البيهقى: أعمال الكافر لا تخلِّصه من النار. ولا تدخله الجنة.

إلا أنها قد تنفعه فى التخفيف من عقوبات الجنايات التى ارتكبها سوى الكفر.

وفيما يتعلق بالمسلم:

فمن رحمة الله تعالى به أنه إذا قصد بالعمل وجه الله سبحانه ابتداء.. فلا

---

(١) راجع مسلم جـ٣.

يقدح فيه أن تُقصد به مصلحة دنيوية بعد ذلك. فالحج لله تعالى ولا بأس أن يبتغى به فضلا من ربه.. ولا بأس أن يخوض الحرب دفاع عن الدين. ثم حماية للعرض بعد ذلك.

ومن تكريم الله تعالى للإنسان: أن جعل الإخلاص سرا بينه وبين ربه: لا يطلع عليه ملك فيكتبهَ ولا شيطان فيفسده

مع ملاحظة أنه من الخطورة بمكان ـ تأسيسا على ما سبق ـ أن تحكم بمجرد الظن على إنسان بأنه مخلص أو غير مخلص: فقد يخيب ظنك فيهما.. وحينئذ فسوف تورط غيرك فى حكم جائر..للأول.. وعلى الثانى الذى ستطفئ منه مصباحاً كنا أحوج ما نكون إلى ضيائه.. بينما يخيب الظن فى الأول.. بما تسفر عنه التجربة من ظاهرٍ رواء. وباطن خواء.

الفقراء.. الأغنياء

روى مسلم: أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا له: يا رسول الله.. ذهب أهل الدثور بالأجور: يصلون كما نصلى. ويصومون كما نصوم.. ويتصدقون بفُضول أموالهم.

قال ﷺ: «**أوَ ليس قد جعل الله لكم مَا تَصدَّقُون؟: إن بكل تسبيحة صدقة. وكلِّ تكبيرة صدقة. وكلِّ تحميدة صدقة. وكل تهليلة صدقة. وأمرٌ بالمعروف صدقة.. ونهيٌ عن منكر صدقة. وفى بُضع أحدكم صدقة**».

قالوا يا رسول الله: أيأتى أحدُنا شهوته. ويكونُ له فيها أجر؟

قال: «**أرأيتم لو وضعها فى حرام.. أكان عليه وزر؟ فكذلك: إذا وضعها فى الحلال كان له أجر**»[1].

تمهيد:

هكذا المتقون دائما كما وصفهم ربهم:

﴿**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾[2].

إن فيهم هِمما ترمى إلى هدف بعيد هو: إرادة الخير.. للغير. ولأن همة المتقى غلابة فهو لا يمضى إلى فعل الخير بخياله.. وسعة آماله.. وإنما هو نشيط.. متحرك.. يسارع إليها بخطى فساح..

وإذا كان شرف الغاية يفرض أن تكون وسيلتها أيضا شريفة.. فهو على الساحة الكبرى.. يسارع الأخيار.. وهو منغمس فى الخير.. كما يشير قوله تعالى ﴿**فِي الْخَيْرَاتِ**﴾.

أى أنه يتغياها بما يساويها شرفا.. فلا يحقد.. ولا يتربص وقد تعجز إمكاناته عن تحقيق رغباته.. وقد يحس بالمرارة عندئذ.. وهذا شىء طبيعى.

ولكن المهم: كيف يعبر عن رغبته.. وإلى من يبث شكواه؟ تلك هى القضية.

(١) مسلم جـ٧/ ٩١.   (٢) المؤمنون: ٦١.

فقراؤنا .. وفقراؤهم

في دولة لا تدين بالإسلام.. وفي إحدى مُدُنها.. نظمت هيئة المتسولين مظاهرة تطالب بوقف إنتاج العملات الصغيرة.. لماذا؟ لأن العملة الصغيرة تسبب لهم خسائر كبيرة؟!

وفي دولة أخرى.. حاول فلاسفة آخر الزمن أن يستقطبوا الفقراء.. فوعدوهم بالفردوس المفقود.. ثم أغرقوهم في بحور من الأوهام.. سُكِّرت بها أبصارهم.. بل قلوبهم.. بل عقولهم.

وهكذا حين تستدبر الأمة هدى الله.. تتنازل في نفس الوقت عن كرامتها.. ويسوّل لها الهوان أن يعيش أفراد منها كالدمل المُمِد.. في جسم الأمة.. ويكون للتسول: هيئة.. ونظم.. وتقاليد..

كما يصبح الفقير في يد الملحدين رأس حربة يثير بها حربا ضروسًا بين طوائف الأمة..حتى يصير الفقراء والأغنياء في الفقر سواء.وعلى أنين الضحايا.. يعيش المترفون.

أما في ظل الإسلام.. فالفقراء مسلمون مؤمنون.. يتصرفون بوحي من هذا الإسلام:

إن لهم رغبة في العمل.. ليكونوا هم والأغنياء معا: على الطريق... في ظل مجتمع هو مسئولية الجميع:

تماما كالشأن في مملكة النحل .. إن النحلة تعمل مع زميلاتها.. وفي نفس الوقت.. تقذف بعشرات الذكور الخاملين.. خارج الخلايا.. حتى لا يكون أحد كَلا على أحد.

وهكذا كان الناس هنا: إنهم فقراء... نعم.. ولكن الفقرِ لم يَقْضِ على حسهم الاجتماعي.. النّزاع إلى توسيع مساحة الخير.. والذي يَدّخر طاقة الحركة في كيانه.. يُنجز بها عملا.. مع الأغنياء. بدل أن يصبها وقودًا يأكل الأخضر واليابس!

الفقراء عند حسن الظن بهم

وقد كان الفقراء فى عهده ﷺ عند حسن الظن بهم.. وحديث اليوم شاهد صدق لهم:

إن قضيتهم الأولى هى: أنهم والأغنياء.. معا.. على الطريق إلى مرضاة الله تعالى.. تعظيما له سبحانه..

ولكى تتم العبادة كمالا.. لابد أن يتُرجَم تعظيم الخالق.. شفقة على خلقه بمدّ يَد العون إليهم.. فالخلق عياله سبحانه.. وأحبهم إليه أنفعهم لعياله. وهذا ما سبق به الأغنياء.. بينما بقيت أشواق الفقراء حرًى إلى مثل ما فعلوا.. لتتم العبادة كمالا..

لم تكن القضية إذن شخصية.. يطالبون فيها بما يُهمهم وحدهم.. فالحر إذا أفلس يوما فَعِفّته: له زاد.. وماء!

إنما مشكلتهم: فى حسهم الاجتماعى الغلاب.. والطامح بهم إلى ما يحققون به معنى العبادة عملا.. بعد أن كان أملا..

ولا بأس أن يمضى الأغنياء سباقين.. فالساحة وسيعة.. تستوعب الأغنياء والفقراء جميعا.

لم تكن المشكلة هنا: ضرورة أن يسامتوا الأغنياء.. فيما يملكون.. ولذلك لم يعبروا عنهم بقولهم: ذهب «الأغنياء».. أو «أصحاب المال» بالأجر.. مثلا.. وإلا كانت القضية.. اقتصادية يمليها التنافس على الحطام وإنما قالوا: [ذهب أهل الدثور بالأجر].

والدثار: هو الفائض لدى الإنسان من كساء وغيره.. يتلفف به من فرط سعته.. فوق ما يلبس من ثياب كافية ابتداء..

وإذن.. فقد أحسنوا التعبير حين استبعدوا ما يوحى بأن مشكلتهم هى: المال... وآثروا عليه لفظا يوحى بالوفرة السابغة لدى الأغنياء.. ولا اعتراض لهم

على فضل الله يؤتيه من يشاء. . وإنما يريدون فقط حل المشكلة بما يمضى بهم على الطريق. . ليلحقوا بالأغنياء أو يقاربوهم وإن لم يساووهم!.

ولقد أضافوا إلى عدالة القضية. . وحسن التعبير عنها. . أضافوا الحكمة فى اختيار الرائد الذى لا يكذب أهله ليكون مستراد آمالهم. . بدل أن ينطوُوا على أنفسهم فيما يشبه المظاهرة الصامتة. . الشامتة. . فكانوا فى موقفهم أسوة تحتذى.

الرائد لا يكذب أهله :

ولقد كان ﷺ سعيدا بأمته فى شخص أغنيائها الذين لم تلههم أموالهم عن ذكر الله. . ثم هو أسعد بالفقراء الذين لم تكن قصارى آمالهم أن يحقدوا. . أو يُهددوا. . وإنما هو التنافس الشريف المحكوم بقيم الإسلام. . والذى جعل من طبقات الأمة كيانا واحدا. . يسارع فى الخيرات. . ولا يسارع فى الثورات. .

تلك الثورات التى تشعلها حكومات كافرة. . والتى تجعل من الوقيعة بين طوائف الأمة فرقة. . أو فرصة. . تمكِّنها من الرقاب. . رقاب الكادحين. .

اتساع معنى الصدقة..

قبل ﷺ عرض الشكوى. . ثم حكم فيها بما يملك من فصل الخطاب:

لقد حصر الفقراءُ معنى الصدقة فى بذل المال. فوسَّع ﷺ دائرة الصدقة لتشمل حركة اللسان بالذكر. . والأمر والنهى. . وكانت من الرحابة بحيث تشمل حتى شهوة الإنسان. . وإنك لتلمس فى جوابه ﷺ من البُشريات ما عبَّر به عن سعادته بالفقراء من أمته!:

١ـ فالمباحات تصير بالنوايا الطيبة عملا صالحا. .

وهذا يعنى ربط الحركة العفوية للإنسان بمبدأ عال غال. فتصبح حركتك اليومية على اتساعها وغزارتها رصيدا لك. . أربى من رصيد المصارف.

٢ـ وإذا تفاضلت الأعمال بالنوايا. . فإنها تتفاضل أيضا بحسب اتساع دائرة نفعها.

وإذن. . فالأعمال التى يتَجَاوزُ نفعها ليصل إلى الغير أثقل فى الميزان من عمل تجنى ثمرته وحدك. . دون سواك.

٣ ـ وتصبح ساحة المجتمع حينئذ ساحة مباركة. . يُدَرِّبك الإسلام فيها على عمل الخير مهما قل. . ويعنى ذلك: تدريب العزيمة على الحركة فى اتجاه الخير. . ليسهل على الإرادة من بعد. . أن تَعْبُر مسافة المباحات إلى الفرائض وهى مؤهلة للعمل. . بما تَوَفَّر لها من عمل موصول.

الطاقة الدافعة :

ثم يجىء الذكر. . والذى يمثل الطاقة من وراء هذه الحركة المباركة:

إنه صدقة على نفسك أولا. . يزكيها وينميها. . ثم هو سبب رئيسي فى رخاء الأمة التى تستشعر عظمة العزيز. . الحكيم. . الرحيم. . العليم. . القادر. . القاهر. . فتعمل ولا تفتر. . وتنهض ولا تركن. . ولا تخون ولا تغدر. . ولا تحتكر. .

ومن ثم كان الذكر مفتاح الرخاء بقدر ما كان النسيان سبيلاً إلى نكسة اقتصادية: على ما يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

اللسان النعمة المفترى عليها :

عجيب أمر هذا اللسان. والذى يملك عبقرية البناء. . والهدم معا: وتصور ذلك اللسان. . فى فمك. . وكيف تَفْرُم بأسنانك قطعة اللحم. . ثم يبقى اللسان. . داخل الفم. . كما هو سيفاً مصلتا:ـ حجم صغير. . وأثر خطير . . . وخطورته تكمن فى سهولة حركته. . . ومجاله متراحب فى الشر والخير على سواء . . . بخلاف العين. . ذات الأثر المحدود. . فلا ترى إلا الألوان والأشكال. . والأذُن. . لا تسمع إلا الأصوات. . ويبقى اللسان سيد الموقف. . وهو بالذكر قادر على إحياء الفرد وإسعاد الأمة:

إن القلب ليضخ الدماء فى العروق. . صيانة للجسم. . . واللسانُ بالذكر. . يُمِد الروح بغذائها اليومى. . حتى تظل موصولة بربها سبحانه. والأمة التى تشكو انحراف بعض أفرادها. . فمرد شكواها إلى قسوة القلب. أى فقدان الغذاء اليومى. . الذكر. . والذى يجعله دائما رطبا ليناً. . هينا!

---

(١) طه: ١٢٤.

ولقد أتاح ﷺ للفقراء أن يكونوا مثل إخوانهم أغنياء.. وأسواق الخير وافرة العطاء بالذكر على مدار اليوم كله.. بل السَّنَةِ كلِّها: فى الصباح.. والمساء.. وعند الأحداث الكونية.. والمخاوف المتوقعة.. وعند سماع الرعد.. بل عند صياح الديك.. ونباح الكلاب..

أما بعد:

فما أسعد الأمة عندما يتنافس فيها أبناؤها.. على ساحة الخير.. فتُوفِّرُ إمكاناتها لمزيد من الخير.. بدل أن تريقها فى صراع دام بين طبقات الأمة. وما أسعد الأغنياء بإخوان لهم فقراء.. لا يحقدون.. ولا يغدرون.. ولكنهم يغبطون.. ويأمُلون..

بل.. ما أسعد الفقير عندما يأوى إلى فراشه. فى الكوخ.. تُصفِّر من حوله الرياح.. ثم يأتيه من وراء الغيب ذلك النداء العلوى الشجى: لا تنم إلا أن تأتى بخمسة أشياء هى:

قراءة القرآن كله..

والتصدق بأربعة آلاف درهم

وزيارة الكعبة..

وحفظ مكانك من الجنة.

وإرضاء الخصوم !!

فإن قيل: كيف؟ قيل: أما تعلم أنك إذا قرأت: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثلاث مرات. فقد قرأت القرآن كله؟.

وإذا قرأت الفاتحة أربع مرات. فكأنك تصدقت بأربعة آلاف درهم؟

وإذا قلت: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير» عشر مرات. فقد زرت الكعبة؟

وإذا قلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» عشر مرات فقد حُفظ مكانك فى الجنة؟

وإذا قلت: «أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه» عشر مرات . . فقد أرضيت الخصوم؟!

ألا إن أسواق الخير مفتحة الأبواب. . فى الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس. وسوف تظل مفتحة الأبواب. . فهيا إلى مزيد من العمل. . تنال به مرضاة ربك ورزق ربك خير وأبقى.

حتى يظل نهر العطاء دافقا

عن أبى بشر قبيصة بن مخارق رضى الله عنه قال. تحمّلت حمالة. فأتيت رسول الله ﷺ. أسأل فيها. فقال: **«أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها»** ثم قال: **«يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:**

رجلٌ تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها. ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة. حتى يصيب قوامًا من عيش» أو قال: **«سدادا من عيش»**.

«ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: لقد أصابته فاقة. فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش» أو قال: **«سدادا من عيش»**.

«فما سواهن من المسألة ياقبيصة سحتا. يأكلها صاحبها سحتا»[1].

تمهيـــد:

ذهب قبيصة رضى الله عنه يومًا إلى الرسول ﷺ.. فلما سأله ما جاء بك قال: كبِر سنى ورق عظمى.. فأتيتك لتعلّمنى ما ينفعنى الله به.

لقد جاءه لا يمُد للعطاء يدا.. وإنما بقلب مشوق إلى الهدى. أما هذه المرة:

فهو يتجه إلى الرسول ينتزع قدميه من الأرض انتزاعا.. وتكاد الكلمات لتموت على شفتيه.. ضيّقا صدره حرجا.. لأنه جاء سائلا.. وأقسى اللحظات فى حياة الأحرار.. بل أقصى ما تكون القساوة عندما تنزل يده من عليائها معطية.. تنزل إلى السفح الهابط مستجديه! ولكن عزاءه أنه:

أولا: يسأل مَنْ يعطى عطاءَ من لا يخشى الفقر.

وثانيا: وأنه لا يسأل احترافا. وإنما هى مغارم الرجولة التى ذهبت برأس ماله

وثالثا: إذا كان هناك من سمار الليالى من ينفق ماله. بل يوصى بماله لكلبه المدلل.

---

(١) رواه مسلم جـ ١٣٣/٧

وإذا كان فيهم من يَفُضُّ فضّته ويذهب بذهبه. . فى كأس من الخمر. . فى محاولة يطفئ فيها اليأس بهذه الكأس . إذا كان هناك من يضن على الإنسان ويسرف على موائد الشيطان. فإن ما فعله قبيصة شيء آخر. . إنه يعيش فى ضمير أمته. . فيوم نادى المنادى من مكان قريب يذكّر بأخ فى الله أصابته مصيبة. . وقف إلى جانبه . ولم يكن ذلك الذى يكتفى فى المواساة بالتوجع . أو التسلية. وإنما اختار الأصعب. . وهو: أن ينقذ أخاه بماله. . وبما له كله ثم هو يسأل السلطان فى أمر لابد منه[1].

إذن فهو طالب فى مدرسة المروءة. . ومن دروس المروءة. . أن تجارى الرياح . فتسبقها. . مدفوعا بهمة نزاعة إلى المعالى. . ولو كانت المعالى هناك من وراء الفلك الدوار. . تنتبذ مكانا قصيا! همة: لا تقف فى المعالى عند حد. . وغيرة على كرامة الإنسان. . لا تغفل عن حق. . وتلك صحيفة سوابقه. . وهى معروضة اليوم. . بين يدى رسول الله ﷺ. . فانظر ماذا ترى.

موقف صندوق النقد الإسلامى :

كان موقف الدولة ممثلة فى شخصه ﷺ. . موقف الواثق من صحة الدعوى. . والصبُّ تفضحه عيونه!

وهى ثقة محكومة بمصلحة المدعى. . وبمصلحة الدولة معا:

فمن حق هذه الهمة العالية أن تقف الدولة إلى جانبها. . لتظل محتفظة بلياقتها الأخلاقية. . فيُحيى الله تعالى بهمتها نفوسا.

والحاكم هنا يعلم أن فى الدولة أناسا: لذة أحدهم فى أن جمع مالا وعدده. . يحسب أن ماله أخلده. . ويتخذ من الثروة جمالا يُدِل به ويزهو. . لكن قبيصة من مدرسة أخرى: متعة أحدهم. . لا فى جمع المال. . بل فى إنفاقه. . وأجمل الجمال. . أن تكون فاضلا. . وذا مروءة. . وقد كان. .

ولكن خزينة الدولة لا تسابق الريح لتعطى المحتاج حتى يستريح! لا. . بل مصلحتها أن تعطيه. . ليعود يوم بدأ . صالحا للحركة والنشاط. . ليستأنف

---

(١) يستثنى من تحريم المسألة كما روى الترمذى «إلا أن يسأل سلطانا فى أمر لابد منه»

الرحلة من جديد.. فلعله أن يستفيد.. ويفيد. وفوق ذلك كله: فحقه فى الثواب مدخر عند ربه.. ومتعة العطاء.. لا يدانيها عطاء.. تلك المتعة التى هى عزاؤه وسلوانه.. والتى تشعر بها تلك النفس التى قيل عنها:

ونفسٍ حرةٍ لا يزدهيهـــا حُلِى الدنيا وزخرفُها المعار
يبيت الحق أصدق حاجتيها وكسب العز أطيب ما يُمار

القرار الحكيم:

قبِل الرسول ﷺ الدعوى.. وقرر صرف المعونة لقبيصة بعد أن تجىء الصدقات.. فأنقذ بالقرار نفسا حرة.. وأحيا قلبا جديرا بالحياة وإذا كانت المؤسسات الدولية الاقتصادية تساوم المحاويج على كراماتهم التى تتلاعب بها.. فإن رسول العزة ﷺ.. يستبقى بالمعونة معنى العزة فى قلب رجل:

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام!

وذو المروءة ـ كما قيل ـ يُكَرم وإن كان معدِما.. كالأسد: يهاب.. وإن كان رابضا!

ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرا.. كالكلب: يهان وإن طُوِّق بالذهب!.

وإذ تقرر الدولة إنقاذ بنيها العاملين.. تقديرا لهم.. وتنويها بهم.. فإن من واجبها أن تشتق من الموقف درسا للأجيال حتى تسد مسارب الأطماع.. وحتى لا يكون الموقف حادثة فردية تغيب فى زوايا النسيان. وتحقق الدولة بذلك مصلحة الأمة فى أن يتعاون أفرادها على البر والتقوى.. فى البأساء والضراء.. وتبقى الساحة واسعة لمن يسارع فى الخيرات.. يخوض معركة البناء.. آخذا فى اعتباره أن الدولة لن تدعه ساعة العسرة وحده.. وهذا واجبها.. أما حقها فهُو: أن نصبر على ألم المروءة صبرا أشد من صبرنا على ألم الحاجة.. وأن نترك للتضحية فى قلوبنا موضعا..

وهذا ما فعله ﷺ.. عندما قرر حق المحتاج فى المعونة ولكن بشروطها التى تجعل منها إجراء استثنائيا فى أضيق الحدود.. لتظل همة المسلم أبدا عاملة آملة.. آخذة طريقها صاعدة فى سلم المعالى.. لا تلوى على شىء.

قواعد صرف المعونة:

ينطلق قرار المعونة من أصول تحكم اتجاهها:

١ـ المحافظة على كرامة السائل، طبق خطة الإسلام المثلى بالارتفاع بالسائل إلى أفق العزة.. والنزول بالمعطى من علو الاستكبار إلى أفق التواضع.

٢ـ أن تكون المعونة فى أضيق الحدود. وعند الضرُورة القصوى.

٣ـ أن يكون الإنسان مبدأ التغيير.

٤ـ يتصرف الحاكم بوحى من الشواهد والشهود العدول.. وتبقى الكلمة الأخيرة لضمير السائل.. الذى سوف يخسر ما أخَذَ لو كان كاذبا.

أما عن كرامة السائل: فلم يصرفْه ﷺ إلى أن تأتى الصدقة.. ولو قد صرفه ربما لا يعود.. لأن نسبة الجرأة التى تحملّ بها قسوة السؤال.. ليس من السهل استعادتها ليبدأ الموقف من جديد. لو عاد إلى بيته حتى يُستدعى.

ثم إنه ﷺ لم يُدخل قبيصة طرفا فى القضية تلطفا به.. وإنما كان الدرس عاما.. وإن دخل فيه دخولا أوليا.. إن الرسول ﷺ سيد الأحرار.. وهو يَعْلَم أن نفس الحر تحتمل الجوع.. لكنها لا تحتمل الإهانة..

وقد يواجه أحداث الحياة الهاجمة كقطع الليل البهيم.. لكنه غير مستعد أن يفرِّط فى ذرة واحدة من كرامته..

وأما عن حجم المعونة: فلا يستأهلها إلا رجل.. فيه من الرجولة مروءتها.. حين ضحى براحته.. ليستريح الآخرون.. والفرق هائل بين من يتاجر فى آلام الناس.. ومن يأسو جراحاتهم.. ولو على حساب راحته: على حد قول القائل:

وأتعب إن لم يُمنح الناس راحةً وغيرى إن لم يُتعب الناسَ.. يتعب!

ثم هى لرجل أصابته جائحة.. أتت على كل ما يملك.. ولا يستطيع أن يواجه الموقف الصعب وحده..

فإذا حدث ذلك فليس عليه جناح أن يسأل.. وواجب الدولة أن تعطيه ما ينهض به من كبوته.. حتى يستوى على سوقه بكفاف من العيش.. ليأخذ بنفسه من بعد زمام مبادرة حياة جديدة يتحمل هو مسئوليتها..

وإذا كانت الجائحة.. والحَمَالة.. من الأمور التى تعلن عن نفسها.. ويبلغ العلم بها فى الناس مبلغا لا يحتاج إلى توثيق.. فإن مَنْ ادّعى الفقر وطلب المعونة من غير الصنفين الآنفين.. فمن حقه أن يطلب.. ولكن من واجب الدولة أن تطلب الشهود على دعوى بلا دليل ظاهر للعيان.

وتأمل دقة الإسلام وذهابه فى عملية التوثيق حدا بعيدا.. فرارا من وقوع المعونة فى يد محترف يمتص بالاحتراف دم الأمة:

فلا يكفى شهادة واحد.. بل لابد من ثلاثة.. ولا يكفى مجرد.. ثلاثة.. بل لابد أن يكونوا.. عقلاء؟!.. لا.. فكل الناس عقلاء.. وكلهم يدعى وصلا بليلى!!

يجب أن يكونوا أصحاب عقول.. أصحابها.. الحراص عليها المنتفعون بها!!

والذين يَضِنّون بما يملكون.. أن يذهب سدى.. ولا يكفى هؤلاء الحكماء.. فيجب أن يكونوا من قوم الرجل.. ممن يستهدون بما يعرفون.. لا مرتزقةً يبيعون ضمائرهم من أجل ثمن بخس دراهم معدودة.

ولا تُقبل إلا شهادتهم الموثقة المؤكدة وهى: لقد.. أصابته.. فاقة أى: نشهد أن هذا الرجل.. بالذات.. وبالتأكيد.. أصابته هو شخصيا.. فاقة لا يعلم إلا الله آثارها..

وإذا اقتحمت القضية كلَّ هذه العقبات.. فلا يجب على الدولة أن تدفع وإنما حلت.. حلّت فقط.. له المسألة.. ثم يتم الصرف فى أضيق الحدود!:

وإذا كان ذلك التدقيق فى أحد جانبيه ضنًّا بمال الدولة أن يضيع.. فإنه وبالدرجة الأولى صيانةٌ لكرامة الإنسان أن تهان وبُعْدٌ به عن مستنقع السؤال.. فمكانه هناك.. فى زمرة إخوانه من الرجال!!.

فإذا بقيت فى القلب بقية من الطمع لدى بعض المحترفين.. الذين يلحون فى السؤال.. سؤال مالٍ يشترون به ما لذ وطاب..

إذا حدث ذلك.. فقد حان وقت النذير المدمدم.. ليخيف هؤلاء الطامعين.. لنشترى بهذا المال.. حبة الدواء للمريض.. ولقمة العيش للجائع.. ومن هنا يقول ﷺ: «**فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا**»

ثم يكرر قائلا: يأكلها صاحبها سحتا... سحتا كهذا التاجر الجشع.. الذى لا يربح مع جشعه إلا قليلا.. وسوف يسرى القليل فى جسمه سريان السم الناقع فى جسم اللسيع.. وعندئذ سيندم.. ولكن بعد فوات الأوان.

أما بعد: فهذا هو منهج الإسلام فى التمكين لخلق العزة.. وعلينا أن نروض أنفسنا لنكون على مستواه قولا وعملا.

لقد تأملت مع المتأملين ذلك العصفور وهو يقفز من غصن إلى غصن:-

سبحان الله: إنه أضيق من الإنسان بطنا.. وأقصر عمرا.. وأصغر حجما. وأقل حاجة..

ومع ذلك.. ما ينفك يتحرك بحثا عن رزقه..

وكيف؟ إنه يهبط على الأرض.. ثم يغوص بمنقاره بحثا عن الحب.. وما هى إلا لحظة حتى يتوه بين فروع الشجرة مغنِّيا..

وكأنما كانت فروع الشجرة سجنا متشابك القضبان.. وها هو ذا ينطلق إلى أعلى الشجرة.. ثم إلى أجواز الفضاء.. ويطول طيرانه هذه المرة.. ومع أن رزقه فى الأرض.. إلا أنه لا يمكث عليها طويلا.. فعرشه هناك فى جو السماء.. حيث لا خوف.. ولا قيد.. وإنما العزة والقرار!! والحرية دائما.. أعلى وأبقى فلماذا لا يتعلم الإنسان؟

إن الأعزاء ليفهمون ذلك الدرس جيدا ... ومن ثم... فهم لا يسألون الناس.. وإذا سألوا اضطرارا لا يسألونهم إلحافا..

جعل الله تعالى غناهم فى قلوبهم.. فكانوا ممن أراد الله بهم خيرا.. وبينما الملحفون يَمُدون أيديهم للمحسن.. والمسىء.. للواجد والفاقد.. للكريم.. واللئيم..

وربما شكا أحدهم كاذبا فقال: إنى فقير.. وكَذَب..

فليس مسكينا من يملك طاقة العمل.. والأرضُ بين يديه ومن خلفه مبسوطة للطامحين.. ولو أخذ حبله واحتطب لكان خيرا له.

ومن النماذج العملية ما روى أنه ﷺ قال لعمرو بن العاص يوما:

«إنى أريد أن أبعثك على جيش. فيسلِّمك الله. ويغنِّمك.. وأزغب لك من المال زُغبة [دفعة] صالحة».

فقال رضى الله عنه: يا رسول الله:

ما أسلمت من أجل المال. بل أسلمت رغبة فى الإسلام. فقال ﷺ:

«نِعِمَّا بالمال الصالح. للمرء الصالح».

فمع أن القائد هنا يتحمل مسئولية سرية من السرايا. . ومن حقه أن يأخذ راتبه. . إلا أنه يفضِّل أن يأكل من عمل يده. . وقد لا يحقق بالعمل اليسار المأمول. . لكنه سعيد إذ يأكل من ماله الخاص:

وصدق الشاعر القائل:

الجوع يُطرد بالرغيف اليابس   فعلام تكثُرُ حسرتى ووساوسى؟

بل قد يعثُر الفقير العزيز على الدينار بعد طول عناء. . ثم يجود به لمن هو أفقر منه. . قبل أن يدخل الدينار صرّته. . على حد قول الشاعر:

لا يألف الدرهم المضروبُ صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق

لقد كان ﷺ سعيدا بمنطق عمرو رضى الله عنه. . من حيث كان شارة العزة التى هى ثمرة الإيمان. .

وأمة قائمة على أمثال عمرو. . لهى الأمة التى تتأبى على الظلم. . ولا يفكر طاغية فى امتلاك أقدارها. .

ولقد سارت الأجيال المسلمة على نفس الطريق:

تغرس أعواد العزة فى القلوب. . علوا بالهمم التى يجب أن تظل دائما مرفوعة الهامة. . مرهوبة الجانب.

ومن النماذج العملية فى غرس ملكة العزة فى قلوب المؤمنين ما روى من أن رجلا:

أ ـ حاول تقبيل يد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. فقال له:

إن قبلة اليد من المسلم ذلة. . ومن الذمى. . خدعة. . ولا حاجة بنا أن نُذل أحدا. . أو يخدعنا أحد !

ب ـ وإذا كان الإسلام يقول للغنى:

إن مالك الذى حال عليه الحول. . ليس ضروريا لك. . . وإلا لما بقى إلى آخر العام!. . وإذن. . فأدِّ زكاته: لجائع. . أو مريض. . أو غارم فى سبيل الله. .

إذا كان الإسلام يقول للغنى ذلك. . فهو يأمر الفقير بالتعفف. . فرارا بنفسه

من الوقوع فى شبكة العبودية:

أرسل غنى إلى فقير ألف درهم. فردها قائلا: لست فقيرا.. ولكنى معسر! وإذن.. فلا مشكلة. فقد قال الله عز وجل: ﴿**سيجعل الله بعد عسر يسرا**﴾.

وهكذا عايشوا القرآن.. فأعزهم القرآن... لقد كانت آى القرآن الكريم حية حاضرة تملأ وعى المسلم.. فتوجهُ حركة حياته إلى الأفضل:

فهو عفيف.. بعمله إن كان قادرا.. وهو متعفف إذا عجز عن العمل.. وبهذه العفة.. وهذا التعفف.. صار عصيا على الانقياد.. إلا للحق.. وللحق دائما.

الالتجاء إلى الله

ومما يُعين النفس على مقاومة الذل عياذها بخالقها القادر سبحانه وتعالى.

وقد علمنا القرآن الكريم أن نستعيذ من فتنة الذين كفروا.. حتى لا نقع تحت رحمتهم ومن ثمّ يبيعون فينا ويشترون.

ومن مأثور الدعاء ما جاء على لسان التابعي «مطرِّف بن عبد الله» تدعيما لمعنى العزة [اللهم إني أعوذ بك من شر الظالمين ومن شر ماتجرى به أقلامهم].

وإذا كنا نقدِّر للغنِّى الآنف الذكر أريحته بهذا الجود.. إلا أننا نُكبِر فى هذا المعسر احتفاظه بعزته.. حتى فى دوامة الإعسار.. فظهر معدنه النفيس شاهد بصدق إيمانه.. واستمساكه بثروة الباطن.. مكابر بها ثروة الظاهر.. وهكذا: تكشف ألسنة اللهب.. عن معدن الذهب!

وإذا كان ذل الإنسان ينبعُ أحيانا من عند نفسه التى بين جنبيه.. فإن العارف يعينوننا على ردم هذا النبع النكد بطلب العون من الله تعالى على تلك النفس الأمارة.. وهو ما أشار إليه مطرِّف بن عبد الله رضى الله عنه فى بقية دعائه السالف:

[وأعوذ بك أن أقول الحق أطلب به غير طاعتك.

وأعوذ بك أن أتزين للناس بشىء يشيننى عندك.

وأعوذ بك أن أستعين بشىء من معاصيك على ضُرٍّ نزل بى.

وأعوذ بك من أن تجعلنى عبرة لأحد من خلقك.

وأعوذ بك أن تجعل أحدا أسعد بما علمتُ منى].

الراقدون تحت شجرة الأمل..

بلا عمل

لأن المروءة صعبة المرتقى.. باهظة التكاليف.. فلا يصلح لها إلا الكرام.. دون اللئام.

ومن رحمة الله تعالى أن يأخذ الكرامُ بناصية المروءة.. عطاء ووفاءً.. وجهادا مباركا: إيواءً لليتيم.. وإرشادا للضال.. وإغناء للمحتاج.. لتصبح الحياة بهم جنة ذات قرار ومعين.

ولو ملكها اللئام لَبَّذروها تبذيرا.. فَحَرَموا الحياة من أعز أمانيها.. ونذكر هنا قول الشاعر:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ — ورث المروءة عن أب.. فأضاعها

أَمَرَتْه نَفْسٌ بالدناءة والخنا — ونهته عن طلب العلا فأطاعها

فإذا أصاب من الأمور عظيمة — يبنى الكريم بها المروءة.. باعها!!

بين الطموح والجنوح

ذات يوم: قلت للفتى الراغب فى الكمال: عليك أن تسأل نفسك: هل حَرَكَتُك داخل إطار الإسلام؟

فإذا كانت منضبطة بحدوده.. فهل هى إلى أعلى أم إلى أدنى؟

وهل لديك الإمكاناتُ التى تحلق بك إلى فوق.. مع النّسور فى جو السماء؟

وهل لديك عزيمة فتية.. تسعفك لحظة الفشل لتواصل التحليق؟

فإذا رُزِقتْ الهمة العالية بإمكاناتها.. فعليك أن تتحمل مسئولياتها الكبار:

قال ابن الجوزى:

[ما ابتُلى إنسان قط. بأعظم من همته!. فإنْ عَلَتَ همته.. اختار المعالى.

وقد لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة. فيبقى فى عذاب.

وإنى أعطيتُ من علو الهمة طَرَفاً.. فأنَا بِهِ فى عذاب:

ولا أقول: ليته لم يكن!... فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل... والعاقل لا يختار زيادة اللذة. ونقصان العقل.

ولقد رأيت أقواما يوصفون بعلو الهمة.. فتأملتها.. فإذا بهم لا يبالون بالنقص فيما هو أهم].

فانظر كيف وَجَدَ ابن الجوزى طعم العذوبة فى هذا العذاب!!

إلى حدٍّ فرض عليه المعاناة حتى كانت نسيج حياته. قال:

[فاستسلمت لتعذيبى.. فلعل تهذيبى فى تعذيبى

وها أنذا أحفظ أنفاسى.. حتى لا يضيع منها نَفَس فى غير فائدة]

ولقد كان للرجل ما أراد.. وظل طول عمره يحمل فى أحشائه بحرا حافلاً بآلاف الدرر.. وكان يطرح شباكه ليستخرج منها اللؤلؤ والمرجان.. ورفض أن يخدشَ وجه دينه بشىء من حطام الدنيا.. وما أبعد المسافة بين رجلين:

أما أحدهما: فشجاع يدافع.. حتى عمن لا يعرف

وأما الثاني: فخائر العزيمة.. يفرّ - حتى ممن يعرف!!

وما أصدق قول المتنبي:

وفى الناس من يَرضى بميسور عيْشه
ومركوبُه رجـــــلاهُ: الثوبُ والجلد
ولكنَّ قلباً بين جنبى مــــــــاله
مدى ينتهى فى مراده حــــــــدُّ

ولقد كان من أهداف الإسلام العليا.. أخذُ الشباب بأسباب المعالى.. ليظل زمام المبادرة فى أيد قوية.. ونفس أبية. وفرارا من خلال الدعة والكسل.. وهما بضاعة الحمقى.

روى الترمذي: أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ. مر بشعب فيه عيينة من ماء عذبة. فأعجبته. فقال:

لو اعتزلت الناس. فأقمت فى هذا الشعب؟ [وهو الطريق فى الجبل]

ولن أفعل حى أستأذن رسول الله ﷺ.

فَذَكر ذلك له. فقال:

«لا تفعل.. فإن مُقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما.. ألا تحبون أن يغفر الله لكم. ويدخلَكُم الجنة..

اغزوا فى سبيل الله.. من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة - ما بين الحلبتين - وجبت له الجنة»[1].

وهذا واحد من الشباب يُغريه مشهد النخيل.. والظل الظليل.. والماء الفرات فيغلبه الحنين إلى عزلة فى هذا الشِّعب المعزول.. مع الماء والخضرة.. بعيدا عن صخب الحياة.

ومع شدة إعجابه بالفكرة.. إلا أن ولاءه للرسول ﷺ كان أشد.. من حيث لم تطاوعه نفسه أن يتخذ قرار تجميد نشاطه حتى يستأذنه ﷺ.

فلما استأذنه ﷺ.. لم يأذن له. وفى نبرة عالية جادة.. تحذّر الشباب من

(١) حديث حسن. صححه الحاكم.

خلاله قائلا: لا تفعل!.

ثم بيَّن ﷺ له خطة العمل الآخذة به. وبأمثاله مِمَّن تناوشهم أحلام العزلة.. إلى عزة الأمة وسعادتها بالجهاد..

وصحيح أن هذا الفتى يملك حياته الخاصة التى بها يعيش.. ولكن: صحيح أيضا أن للمجتمع فى عنقه نصيبا مفروضا من نشاطه.. يجب أن يؤديه!

ولما كانت العزلة تعنى حرمان الدين والوطن من حقهما فى طاقات الآخرين.. فقد رفض ﷺ الفكرة.. لافتا أنظار الشباب إلى لون من الحياة أجمل من هذه الحياة وأبقى.. وهو: الحياة فى ظلال السيوف لتبقى الأمة سيدة مصيرها.. ويبقى هو أيضا سيد مصيره فى أمة عَزيزةٍ به.. وبإخوانه. أمة لا يكفيها أن يكون لها فى الأرض.. مكان.. حتى تكون لها فى السماء مكانة!

ولقد كان ﷺ حكيما عندما وجه الفتى إلى ما يحسنه وما يجمل به فى نفس الوقت:

لقد أنقذ طاقاته من الضمور المؤدى إلى الانحلال.. لأن الحياة المثلى فى الاحتكاك بالآخرين.. حين يقطع الفتى شعابا.. ويقاومُ صعابا.

هذه الصعاب التى تستثير مكنون قواه... ليصير المسلم رجلا عالميا.. بل تاريخيا.. لا تكمن قيمته فقط فيما يحسنه.. ولكن فى مدى ما يهتم به من قضايا دينه وأمته. ثم ما يبذله فى سبيلهما راضيا.

بل لقد كان ﷺ: للفتى نعمة مسداة ورحمة مهداه.. حين أنقذه من الموت البطىء.. من هذا الفراغ القاتل.

وربما كان عذاب الفارغين أربى من كدح العاملين الآملين:

سئل حكيم: ما أصعبُ الأحمال؟ قال: عندما لا تحمل شيئا على الإطلاق!!

إن المُقعَد فراشه حَجَرٌ.. فلا ينام... والكسول لا ينام.. حتى على الحرير.. ومَنْ لم يتحرك: جَمَدَ.. ومن جمَدَ.. هَمَدَ!!

ولقد قال علماؤنا: إن للمؤمن أجلين: أقصرهما: الأجل المحدود.. من المهد إلى اللحد.. وأطولهما: الوجود المبدوء بالأعمال الكبيرة.. وما دام العمل باقيا.. فالعمر ممتد من خلاله..

قصور العقل

ومن صور النعمة المسداة إلى الفتى.. وُقُوف القيادة المؤمنة إلى جانبه.. لتنقذه بالحكمة من قصور العقل الذى لا يمكنه اتخاذُ القرارات الحاسمة.. وقد قيل: [إن البشر مهما اتسعت مداركهم. وسمت أفكارهم. لا يمكنهم الإحاطة بمطالب الحياة الاجتماعية. والتوصلُ إلى كل ما يحتاجه الإنسان فى وجوده المدنى... لأن العقل الذى امتازُوا به عن سائر الحيوان.. وصاروا به معدن الحكمة: غايته: معرفة كليات الأشياء. دون الاطلاع على جميع جزئياتها. فلا يكاد يدرك كل مصلحة.. مصلحة.. ولا يكاد يتصور كل مفسدة.. مفسدةً.. نحو أن يعلم حسن اعتقاد الحق.. وحسن استعمال العدالة. وملازمة العفة.

لكنه قد يخفى عليه أن اعتقاد كذا: حق.. وفعلُ كذا من العدالة ترك كذا: من العفة. كمثل الفقيه: يعلم أحكام الحوادث الكونية. وليس له قوة فائقة فى إعطاء الحوادث حكمها الواجب لها.

أو كمثل الطبيب: يعلم الأدوية وخواصها. وليست له مهارة فى علاج كل مرض بما يلائمه. وهو المسمى بالتطبيق.].

وهنا يجىء دور القيادة المؤمنة.. المسئولة.. لترتفع بالصحابى الجليل ليظل نجما يرسل فى الجو ضياء.. ويرفع للحق لواء.. بما دفع فيه من دماء الشهامة.. يُجريها فى عروقه..

وما بث فيه من عزة لا يُلقيها عليه درسا مجردا.. وإنما هو المربى الحازم:

يحب التلميذ حبا يطفئ من حرارة الشدة.. فى حزم تُلَطِّفُ الشفقة شيئا من مرارته.. وإذا بالفضائل الإنسانية منقوشة على صفحة القلب.. وليست مرقومة فى المتاحف على خُشُب مسندة! إنه يمثل روح الدين الذى كانت العزة أحد أركانه.. الدين الذى علمك أن تأكل من عمل يدك.. لا.. بل أباح لك أن تصلى عاريا.. ولا تطلب من غيرك ثوبا تصلى فيه.. لتظل مرفوع الهامة دائما.. بلا منّة من أحد.

ولو ظلت حياة الفتى عناء موصولا.. فالعمل شرَفُه.. لقد قضى عبدالرحمن الناصر عشرات السنين فى أبّهة الملك.. ولِين العيش.. ثم.. وبعد العمر الطويل حسَب أيام راحته فلم تَتَجاوز ستة عشر يوما!!

وقد يكون الإنسان مستجمعا خصائص الإنسانية: علما.. وشجاعة.. وعفة.. وعدالة.. لكنه لا يُمدح على مخزونها لديه وإن كان وفيرا.. إلا إذا تعدت آثارها إلى غيره.. وانتشرت على مستوى أمته.

وليت شعرى.. لو آثر هذا الفتى مغارة فى الجبل.. أو ظلا فى بستان.. فماذا هو قائل عندما يُسأل عن عمره.. الذى لم يستثمره فى الحق؟ بينما الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله؟!

إن مسئولية الدعوة فى أعناقنا تتقاضانا.. أن نُصابرهم.. بل ونكابرهم.. والنتيجة فى النهاية لصالح المجاهدين:

وكما قيل [إن صاعد الجبل.. ربما يجد شيئا من التعب. ويخشى أن تفترسه الوحوش... ولكنه.. قد ينجو منها.. ويستريح على قمة الجبل.. معتصما بمكانه الرفيع. وتَقْصُر عنه يد المتناول.

أما من أخلد إلى السفح. فحظه من الحياة: خوف لا ينقطع. وإشفاق لا يزول:

كل لحظة تهدده بالسقوط فى يد الصائد.. لقد مات كثير من الناس فى طلب العلا.. ولم ينالوا... وبلغ كثير من الطالبين ما أمّلوا..

ولكن. هلك بالفتك أضعاف هؤلاء.. وهؤلاء ممن أَلِفُوا الخمول ورضُوا بالحياة الحيوانية]. أ.هـ

وإذا تعالى الثانى فى البنيان.. وتغالى فى الأثاث.. فإن الأول فى عِزّه أسعد من هذا فى رياشه وجنده:

[إن الثياب المُعْلَمَة بالدم.. الموشاة بالنجيع. الملونة بالمُهجَ.. هى التى حفظت لِلابسيها ذكرا حسنا لا ينقطع. وأثرا مجيدا.. لا يُمْحَى. إن الذين ضُرِّجوا بدمائهم فى طلب المجد هم الذين خشعت لذكراهم الأصوات. وأجمعت على

فضلهم خواطر القلوب]. أ.هـ

ولقد حَفَل تاريخنا الإسلامى بشباب أثبتوا وجودهم فى كل مجال حُمّلوا مسئوليته:

فى مجال الجهاد.. كانوا أبطالا

وفى المجال الاجتماعى: كان لهم دورهم المرموق:

فأغاثوا اللهيف.. وأعانوا على نوائب الحق

وحتى فى إدارة المدن كانت لهم أعمالهم الرشيدة المجيدة فى إصلاح الرعية. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون:

المتنافسون فى العمل.. لا فى الأمل... فى الأصول.. وليس فى الفرُوع..

تنافس من ذلك النوع الذى أشعل الرغبة فى قلوب غلمانٍ فى عُمْر الزهور بين يدى «بدر» و«أحد».

لقد هرُعوا إلى هناك.. وفى صمت.. يُعرِّضون أنفسهم للموت فى سبيل الله تعالى... ولم تكن بضاعتهم اللجاجة.. فما لَهُمْ بها من حاجة.. وفى نفس الوقت أقامهم الله تعالى حجة على أهل الكسل.. الراقدين تحت شجرة الأمل.. بلا عمل.

شباب قُنّع لا خير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا

الحسنة
التى يثقل بها الميزان

إن الحسنة التى يثقل بها ميزان هذا الفتى هى:

أن هواه كان تبعا لما جاء به ﷺ.. لقد تعرض لامتحان صعب.. ولكنه تجاوز العقبة.. ونجح فى الامتحان لقد فتنه المشهد الجميل.. مشهد الماء.. والظل.. والنخيل.. وراودته فكرة العزلة مع هذا الهدوء.. ليتحقق أمله فى عبادة ربه.. فى هذا الجو الهادى الوقور. ولقد ملكت الفكرة عليه أقطار نفسه.. لكنّه نحى رغبته الملحة جانبا.. فالقرار ليس قراره.. وإنما هو فيما يحكم به رسول الله ﷺ.

لقد كان الإغْراء جارفا.. لكن الولاء للقائد كان أشد.. وتلك مَيْزته الكبرى.. والتى كانت شرْعة الصحابة.. ومن تبعهم بإحسان.. وهى نقطة البداية والنهاية فى منهج الإصلاح الذى نريد:

وها هو ذا التاريخ الذهبى للإسلام تحكى صفحاته المضيئة مسارعة الأطهار الأبرار فى الاتباع.. بل فى الحفاظ على السنة.. والاقتداء بالأسوة الحسنة ﷺ إلى حدٍّ دفع الأعداء إلى الاعتراف بأنهم لم يروا أحدا يحب أحدا.. كحب أصحاب محمد محمدا:

كان ابن عمر.. يذهب إلى المسجد فى غير يوم الجمعة.. فإذا دخله صلى حيث كان يصلى الرسول ﷺ.

ثم صعد المنبر.. ووضع يده، حيث كان يضعها الرسول.. بل ويتحرك مثلما كان يتحرك.. بل وينظر كما كان ينظر.

فإذا ذهب إلى مكة حاجًّا.. لم يدع مكاناً شرَّفه الرسول ﷺ إلا وقف فيه شوقًا.

ولم يقف الحب.. ولم ينته الاتباع عند هذا الحد.. بل إنه كان يغزو عاما.. ويحج عاما!

ولا ننسى الراوى[1] الذى لم يَرْوِ للرسول ﷺ حديثا إلا عمل به . .

ولما بقى حديث الحجامة هو الوحيد الذى لم يعمل به. ذهب إلى الحجّام - فى غير حاجة - واحتجم وأعطاه درهما . . وعاد إلى بيته مرتاح الضمير. بعد أن تم الاتباع كمالا.

ويرحم الله يحيى بن مَعين: لقد سمع رجلا يروى حديثًا موضوعا فقال: لو كان لى فرس وسيف لغزوته!!

حـــاجة الأمة :

وحاجة أمتنا الملحة اليوم هى:

قيادة واعية تضرب على الوتر الحساس. . صادرةً فى قيادتها عن رحمة سابغة. . وإدراك لقُدرات الشباب. . ثم استثمارها لصالح الحق. .

ثم. . شبابٌ. . من بيضة الإسلام خرج. . وفى عُشِّه درج. . يبسط لك وجها رحبا. . ولسانا رطبا. . وسلاحه فى يده. . يدخره لأعداء الإسلام. . إن المسئولية إذن مشتركة مقسومة على ركاب السفينة! فإن لم تفعلوا. . فنحن جميعا مسئولون. . مسئولون عن أمور صَنَعناها بأيدينا. . أمور يضحك الصبيان منها - ويبكى من عواقبها اللبيب.

---

(١) لعله البخارى أو الإمام أحمد.

وفاء الأنبياء

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«نحن أحق بالشك من إبراهيم ﷺ إذ قال ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾».

قال: **«ويرحم الله لوطا: لقد كان يأوى إلى ركن شديد.. ولو لبثت فى السجن طول لَبْث يوسف لأجبت الداعى»**[1].

تمهيـــد :

بحكم غريزة حب الذات.. كان التنافس بين البشر شديدا..وهو بين الأقران أشد.. لتقارب المشابه بين الزملاء.. والتى تحمل القرين على رفض أن يتفرد قرينه بشىء دونه. ولذلك قالوا: كان من عذاب الهدهد فى عهد سليمان عليه السلام أن يخدم أقرانه.. وقد يسهل عليك أن تخدُم الغريب.. أما من هو مثلك فى السن.. أو الوظيفة.. فما أثقل المهمة.

فإذا كان التنافس بين الزعماء.. الزعماء الذين جمعتهم الدنيا.. فإنه بالغٌ حد التشبع:

فللسلطان نشوة.. وللحكم سكرة تحملهم فى غيبة الإيمان على أن يموج بعضهم فى بعض: يتنابزون بالألقاب.. ويتبادلون السباب.. يكيد بعضهم لبعض كيدا.. بينما معاهدة السلام.. ما يزال مدادها رطبا لم يجف.. بل.. بينما هم على مأدبة المفاوضات يتبادلون التهانى.. والوثائق!! ومنهم لويس الخامس عشر الذى كان يقول:

أنا ومِنْ بعدى الطوفان.. وهى النَّغَمة التى تعبر عن الأنانية البغيضة فى مثل قولهم: إذا مت ظمآنا.. فلا نزل القطر !!

---

(1) مسلم جـ2/ 183.

الزعامة الإيمانية

لكن الزعامة المحكومة بالإيمان لها شأن آخر: فهى تتعاون على البر والتقوى.. ولاؤها للحق الذى يجب أن ينتصر.. وحكْمه الذى يجب أن يعلو.. وإنها لتَنْسى حتى نفسها وهى تدافع عن الصّديق.. إحقاقا للحق.. ووفاء للأخوة.. فى موقف يجسّد معنى الإيثار الذى عبر عنه الشاعر بقوله:

فلا نَزَلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

والمثل الأعلى هو محمد ﷺ.. والذى يتجلى فى هذا الحديث الشريف..

وقصة الحديث أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ الآية.. قالت طائفة من المتحمسين المخلصين: شك إبراهيم ولم يشك نبينا!!

وعلى الفوْر.. ينبرى ﷺ مدافعا.. واضِعاً النقاط على الحروف.. فى درس تربوى.. يُنزل الناس منازلهم.. بقدر ما يلفت النظر إلى ضرورة التحرى.. قبل الحكم على الناس والأحداث.

مغزى موقف الصحابة

ولقد كان الصحابة يحبون رسول الله ﷺ.. ويُفَضِّلونه حتى على أنفسهم..

لكن الحب الجارف قد يحمل أحيانا على تجاوز الحد.. ومحاولة تقديس البطل.. وحينئذ يكون الخطر على عقيدة الإنسان.

وإذا اندفع المحبون إلى طريق غير مأمون.. فواجب القيادة الواعية أن تضع الأمور فى نصابها.. صيانة لذات العلاقة التى تربطه بأتباعه.. إنها قيادة صاغها الله تعالى من معدن الحق.. فلا ترضى إلا به.. ولا تحتكم إلا إليه..

ثم إن الصدق شرعتها فى الحياة ومنهاجُها.. وإذن فكل محاولة تُخصمُ من حساب غيرها.. لتضيف إلى رصيدها.. محاولة تجافى الصدق.. ومن الوفاء له أن نتصدى لها.. وهذا ما فعله ﷺ..

الرسول.. الأسوة:

ذات يوم: أرادت جارية مؤمنة أن تعبر عن حبها له ﷺ فقالت فى نشيد لها:

وفينا رسول الله يعلم ما فى غد!! فنهرها ﷺ.. لأنه لا يعلم الغيب..

وإذا كان الشاعر يقول:

يهوى الثناء مبرز ومقصر　　　حب الثناء طبيعة الإنسان

والرسول ﷺ إنسان.. فلماذا لا يهوى الثناء؟ ومع أنه ﷺ كان إنسانا لكنه لم يكن يرغب فى الثناء . إن كونه إمام المتقين هو الذى يمنعه..

ومع أنهم يقولون: إن أجمل صوت فى الدنيا هو صوت إنسان يمدحك.. نعم.. هو الأجمل.. لكن ليس هو الأكمل.. والأنبياء حداة الكمال.. ورواده المخلصون.. وإذن فهم محكومون بشرعة الكمال.

معنى: نحن أحق بالشك:

قال العلماء معنى قوله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» أن الشك مستحيل على إبراهيم ﷺ.. فإن الشك فى إحياء الموتى لا يتطرق إلى الأنبياء.

ولو كان الشك متطرقا إلى إبراهيم لكنت أحق به منه.. وقد علمتم أنى لم أشك.. فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك. ولاحظ أنه ﷺ لم يقل فى دفاعه: إن إبراهيم لم يشك..

لكنه جعل الشك معه هو «**نحن أحق بالشك**» زيادة فى تبرئة ساحة أبى الأنبياء من كل ريبة.. يهجس بها خيال..

معنى الدفاع عن الخليل:

وقد جاء دفاعه ﷺ قويا... غنيا بالدروس:

أولا: الأنبياء جميعا إخوة على طريق الحق.. وما يضر أحدهم.. ينالُ الآخرين كفلٌ منه. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ مع أنهم كذبوا نوحا فقط.

ثانيا: مدحُ الرسول ﷺ والتعريض بإبراهيم مخصوم من حساب الحق الذى اجتمعا عليه.. فهو تهوين للحق نفسه.

ثالثا: الزعامة المسلمة تعيش بخصائصها الذاتية.. ولا تستجدى إطراءً يُعيرُها محاسن غيرها..

وإذا وُجد فى الناس من يسلب المادح حق المدح إلا بعد أن يتفضل الممدوحُ بالإذن له فى مثل قولهم.

ولا يليق بمن يرنو لمدحكمو ... أن ينسج الحمد قبل الإذن بالحمد

فإن نَبِىَّ الإسلام يرفض هذا المسلك المهُين.. وضعا للشخصية الإسلامية فى إطارها الصحيح.

رابعا: من أسباب دفاعه ﷺ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أن النبى مأمور باتباع الأنبياء قبله:

فى قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[1].

وباتباع إبراهيم الخليل بالذات.

﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٩٠. (٢) النحل: ١٢٣.

قمة التواضع

فإذا علمت أن محمدا ﷺ هو خير الأنبياء.. وهو مع ذلك يُقدِّم الخليل على نفسه بان لك التواضع فى أكمل صوره..

إلى جانب الإنصاف المتمثل فى أسلوب الدفاع الذى يراد به إحقاق الحق على أوفى معانى الإحقاق.. حيث استعمل ﷺ ذلك الأسلوب الجارى فى المخاطبات كقول القائل: ما كنت قائلا لفلان.. أو فاعلا معه مكروها.. فقله لى وافعله معى.. ومقصوده: لا تقل ذلك فيه..

ويعنى ذلك: أن الذى تظنونه شكا.. ليس بشك.. وإنما هو طلبٌ لمزيد اليقين.

حملة الوفاء مستمرة

ويظل ﷺ وفيا مع إخوانه من الأنبياء والمرسلين فى درس يعلّم الأصدقاء معنى الوفاء: وها هو ذا يدافع عن أخيه لوط عليه السلام:

فقد حكى القرآن الكريم قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1].

وربما ظن متسرع أنه نسى ذكر ربه فى محنته.. فأعلن ﷺ أن لوطا عليه السلام: كان يأوى إلى ربه موقنا بنصره. واثقا بمعيته تعالى.. بل لقد كان يأوى على سبيل التحقيق... وكل ما فى الأمر أنه أراد أن يَجْبُر خاطر الأضياف..

وهذا يوسف عليه السلام يضرب المثل فى الصبر.. فقد لبث فى السجن بضع سنين.. ثم جاءه رسول الملك يدعوه للقائه فلم يستخفَّ الفرحُ يوسفَ ولكنه قال له:

ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة:

وفضَّل البقاء فى السجن.. حتى تثبت براءته.. ليواجه الحاكم بريئا من التهمة..

---

(١) هود: ٨٠.

ويقول رسولنا تنويهاً بصبره عليه السلام: **«ولو لبثت فى السجن طول لَبْث يوسف.. لأجبت الداعى»**

وهكذا: يبقى الوفاء بين الأصدقاء.. أحياءً وأمواتًا . .

أما اليوم . . فقد غاض معنى الوفاء . . الذى صار فى فم الحياة ذكرى . .

وصار الأمر على ما يقول الشاعر:

لم يبق من الدنيا بأيدينا ... إلا دموع فى مآقينا!!

من اليقين
إلى عين اليقين

إذا لم يكن إبراهيم ﷺ قد شك.. فما سبب سؤاله.. وما معناه:

يقول العلماء في ذلك:

١- إنه عليه الصلاة والسلام رأى جيفة بساحل البحر. تتخطفها الطير. فتحركت غريزة حب الاستطلاع لمعرفة كيفية جمع ما تفرق وتمزق. لا شكًا.. ولكن حبًا في الرؤية.. تماما.. كحب المؤمنين رؤية الرسول ﷺ في الجنة مع أنهم موقنون بها.

٢- فكأنه أراد رؤية كيفية الإحياء عَيانا.. لأنه أقوى من الاستدلال.. الذى هو مُعرَّضٌ للشك.. أما عِلْم المعاينة فهو علم ضرورى.

٣- ولعله أراد اختبار منزلته عند ربه سبحانه وتعالى.. ويكون معنى: أو لم تؤمن: أى: أو لم تصدق بِعظمِ منزلتك عندى؟

٤- ولعله لم يكن يسأل لنفسه. فهو على أوفى معانى اليقين.. وإنما أراد إراءة المشركين عيانا.. لما قال لهم: ﴿**ربى الذى يحيى ويميت**﴾.

وعندما أعلن ﷺ أن إبراهيم لم يشك.. وإذا كان ولابد من شك.. فأنا أولى به.. كأن المعنى: وقد علمتم أنى لم أشك.. وإذن.. فقضية الشك غير واردة..

ولكن ذلك تقتضينا كلمة تؤكد عصمته ﷺ من الشك.. بِنَفى ما يمكن أن يهجس به خيال: عندما عاد ﷺ من الغار يرجف فؤاده قال لخديجة رضى الله عنها: «**لقد خشيت على نفسى**».

وفى رواية «مسلم» فقال لخديجة: «**أى خديجة، مالى؟!**» يعنى: يا خديجة: أى شىء جرى لى؟ وأخبرها الخبر قال: «**لقد خشيت على نفسى**».

وهنا يهجس فى رُوعك[1] أن هذه الخشية. وهذا التشكك من النبى فى أمر نفسه. وعدم اطمئنانه إلا بعد كلام خديجة. وكلام ورقة بن نوفل.. كل هذا

---

(١) الرُوع: القلب. أما الرَّوْع فهو: الفزع.

ينقض ما قررناه فى خاصة الوحى.. إذ قلنا إنه يلازمه علم ضرورى بأنه من عند الله. فنقول: ليس فى شىء من ذلك يناقض ماقررنا: أما الخشية: فليست من الشك بسبيل. وإنما هى خشية الموت. لضعف احتمال قوته البشرية لتلك القوة الملكية التى كان من آثار ملاقاتها احتباس نَفَسه وبلوغ حد طاقته.

ويدل على أن هذه الخشية من هذه الناحية.. أنه عبر عنها بصيغة الماضى المنقطع لا بصيغة المضارع الدال على بقاء الخشية إلى زمن التكلم.

ويحتمل أن تكون الخشية خشية إشفاق من أعباء الرسالة. وأنه عسى أن يكون هذا الابتلاء الإلهى كاشفا عن ضعف عزيمة أو تقصير فى التبليغ وهذا وجه بعيد من الصيغة.

وأما قوله لخديجة «مالى» وانطلاقه إلى ورقة. وقصُّه عليه خبر ما رأى. فليس فى هذا الاختلاج شىء من الشك والارتياب..

وإنما هو لفرط الدهشة والاستغراب ومفاجأة ما لم يكن له فى حساب. ومثل ذلك مثل رجل يقع على كنز ثمين من حيث لا يحتسب أو يلاقى صديقا قديما فى مكان أو زمان لا ينتظر ملاقاته فيه. أو تصل إليه منحة سنية من ملك عظيم. وهو خامل الذكر. فإنه يكاد ينكر سمعه وبصره ولا يتمالك أن يقول: أىْ رب ماذا أرى؟! أفى حلم أنا أم فى يقظه؟ فأن جدير بهذه الرتبة من الكرامة؟.

وهكذا لا تزايله صدمة المفاجأة حتى تمر عليه فترة أو فترات. ويسمع من غيره مصداق ما عرفه من نفسه.

فحينئذ تنضم الدلائل الخارجية إلى العقيدة الوجدانية فيزداد يقينا. واطمئنانا ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

وأى شىء أثلج للصدر. وأشد تثبيتا لاضطراب النفس من كلمة تأييد يسمعها المرء من خبير منصف كورقة بن نوفل. أو محب مشفق كخديجة بنت خويلد؟

ومن هنا ينبغى لمن فاجأه أمر أن يُطلع عليه من يثق بنصحه وسداد رأيه. كما ينبغى للمستشار أن يجتهد فى تهوين الخطب وتيسيره، وأن يبشر ولا ينفر. ويذكر أحسن ما يعلم. كما فعلت خديجة رضى الله عنها[2].

(١) البقرة: ٢٦٠. (٢) من كنوز السنة النبوية: ٢٦ـ ٢٨.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق. ورجلٌ آتاه الله حكمة فهو يقضى بها. ويعلمها»** متفق عليه.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن. فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار.**

ورجل آتاه الله مالا. فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» متفق عليه[1].

حرص الإسلام على أن يفتح للتنافس الشريف أبوابا.. وييسر له أسبابا فى مثل قوله تعالى **﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾**[2] وقوله سبحانه: **﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[3].

ثم هو- فى نفس الوقت ـ أحرص ما يكون على أن يَظَلَّ هذا السباق مشمولا بروح الإسلام ليحقق الحكمة منه وهى: بلوغ الأمة متمثِّلة فى أفرادها الآملين العاملين ما تصبو إليه من كمال.. من أجل ذلك حدد مجالات هذا التنافس.. فى جانبيه: الدينى والدنيوى. متجاوزاً كل ما يتنافس فيه المتنافسون من عرض الدنيا.. لتتجه طاقة العمل إلى تعلم العلم. وتعليمه وبخاصة القرآن. ثم تحصيل المال من حله لينفق فى حله تدعيما للحق. ورفعًا للوائه..

وهذه ناحيته الإيجابية.. وهو الحسد بمعنى الغبطة.. وتمنى مثل ما للغير.. وأما من الناحية السلبية.. فقد نفاها الحديث الشريف بقوله ﷺ: **«لا حسد»** وهو الحسد المذموم.. السلبى.. الذاهب بصاحبه فى الأرض حيران.. وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها فسوف نجلى معنى الحسد المذموم.. فما هو هذا الحسد؟ وما أسبابه؟وماهى مضاعفاته؟ وكيف نقطع عليه الطريق حماية للأمة من أوضاره؟ ليبقى الحسد بمعنى الغبطة شرعة المؤمن ومنهاجه؟..

---

(1) الحديثان فى رياض الصالحين برقم ٥٧١، ٥٧٢.
(2) آل عمران: ١٣٣.
(3) المطففين: ٢٦.

أما الحسد المذموم فهو: [تمنى زوال نعمة الغير].

مغزى هذا التعريف:

ويعنى هذا أن الحسد علة شديدة التَّعقيد:

فعلة الحاسد.. فى قلبه.. وليست فى يده مثلا.. فقلبه يتمنى.. يرغب فى الحاح: الإضرار بالغير..

ومن ثم فالمرض هناك فى الأعماق.. ولن تطوله يد الطبيب إلا بجهد جهيد. فالحاسد: يُضمر الشر فى قلبه.. ومن زرع الشر فى قلبه أنبت له ثمرات المذاق: نماؤه الغيظ.. وهو التمزق.. وثمرته الندم.. وهو القلق. وما ظنك بمريض واقع بين شقى الرحى: التمزق.. والقلق.. إنه قلما يستجيب للعلاج!

ثم ما هو حجم الضرر الذى يريد إلحاقه بالغير؟

إنه لا يريد نقصان النعمة مثلا.. ولكنه يريد زوالها.. لتصبح أثرا بعد عين.. ولو كانت مشكلته أنه لا يحب أن يرى هذه النعمة لهان الأمر.. لكنه يريد: زوالها بالمرة! وما هذا الذى يريد زواله؟:

تاجر أمين .. موسع عليه فى الربح.. تلميذ ناجح.. رائد فى مجموعته... زوجة وفية تعيش فى ظل زوج وفىّ.. عالم.. يبصِّر الناس بأمور دينهم.. يريد لذلك كله أن يذهب.. ليتحول إلى أطلال ينعق فيها البوم!

ومن ذلك الغير؟ مسلم مثله: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. يريد لحياته أن تنقلب رأسا على عقب.. ويتحول عرسه إلى مأتم..

ولك أن تتساءل إذا كانت هذه رغبة الحاسد فيما يتعلق بأخيه المسلم. فكيف يكون حاله مع كافر أو ملحد؟!!

الحسد يعلن عن نفسه

وإذا لم يستطع البيان أن يبلغ قرار هذا الإنسان.. فقد كان من تدبيره تعالى أن ينطق الحاسد نفسه بما يُبين عن مكنون قلبه. فى مثل هذا المشهد:

اجتمع ثلاثة من الحاسدين فقال أحدهم: ما اشتهيت أن أفعل خيرا قط..

وقال الثانى: ما اشتهيت أن يفعل أحد.. بأحد.. خيرا قط..

أما الثالث فقال: ما اشتهيت أن يَفْعل أحدُ بى.. خيرا.. قط!!

فقال رجل سمعهم: ما أعدل الحسد.. لقد بدأ بصاحبه أولا!!

وكأنما يريد أن يقول: إن الحسد حركة يائسة. ورمية طائشة.. يرجع سهمها إلى نحر رامية وبضدها تتميز الأشياء.

فإذا قابلت هذه الصورة الكابية.. بموقف ابن عباس رضى الله عنه والذى قال لما شتمه رجل: إنك لتشتمنى وإن فىّ ثلاث خصال: إنى لآتى على الآية فى كتاب الله. فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم منها. وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأفرح. ولعلى لا أقاضى إليه أبدا. وإنى لأسمع بِغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح ومالى به سائمة.

وهكذا من فوائد القبح.. قبح الحسد المظلم.. من فوائده: تمييزُ الجمال على لسان ابن عباس رضى الله عنه.

وتأمل كيف يتسع القلب البشرى ليكون أرحب من الدنيا.. ثم كيف يضيق.. ليكون كجحر خرب..

من أسباب الحسد:

إنَّ قلب المسلم حصن منيع بالإيمان.. ولكن الشيطان يطوف حوله إرادة اقتحامه... مستعملا كل أسلحة الإغراء و الكيد..

ولا يفتأ يمكر بالليل والنهار ليورط ضحيته فى رذيلة الحسد.. التى تباشر عملها حينئذ مدفوعة بأسباب منها.

١ـ مرض القلب.

٢ـ رؤية النعمة.. ثم الغفلة عن واهبها سبحانه وتعالى.

٣ـ الفتنة بالدنيا.

٤ـ حب الرياسة.

٥ـ العجز المُقْعِد عن طلب المعالى.

وعن هذا العجز يقول الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعـــداء له وخصوم

كضرائر الحسناء: قلن لوجهها ... حسدًا وبغياً إنه لدميــم

وترى اللبيب محسَّدا لم يجتلب ... شتم الرجال.. وعرضه مشتوم

وهكذا عاجز الرأى.. ضعيف الإرادة دائما.. على ما وصفه الشاعر:

وعاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى إذا ضاع أمرٌ عاتب القدرا

والحاسد لا يعاتب.. لكنه ساخط غاضب على قدر الله تعالى.

وفى الكشف عن دوافع الحاسدين يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى كتابه « من كنوز السنة»:

[ولعمرى إنه لا ينطوى على كراهة الخير للغير إلا أحدُ ثلاثة:

إما رجلٌ يسخط قضاء الله، ولا يطمئن لعدالة تقديره.. فهو يريد أن يقسم رحمة ربه على غرار شهوته.. ولو اتبع الحق هواه لما أذن لغيره أن يتنسم نسيم الحياة ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾[1].

ومثل هذا المعترض على حكمة الله ليس من الإيمان فى شىء. وإنما هو من أتباع إبليس فى الدنيا والآخرة.

وإما رجل أكل قلبه الحقدُ والحسد. وما يمت إليهما من الأدران الباطنية. التى

(١) الإسراء: ١٧.

قد يُولّدهما سَقَم الطبع. ومرض النفس.

وهذا ربما يجد دواءه بطول العلاج تحت إشراف طبيب من أطباء القلوب. أمثال الإمام الغزالى رحمه الله.

وإما رجل أذهلته شهوة طبعه عن سعة فضل الله. حتى كأنه يخشى إذا زاحمه الناس على الخير ألا يبقى له حظ معهم.

وهذا دواؤه عندنا: الإيقاظ بالتنبيه وبالذكرى التى تنفع المؤمنين حتى يتذكر أن ما عند الله لا ينفد بكثرة الإنفاق. وأنه لن يُعجز الله أن يعطى لغيره مثل ما أعطاه. من غير أن ينقص ذلك شيئا من نعمته عليه. وحسبه من هذه الذكرى أن يسمع مثل قوله ﷺ: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سّحاءٌ بالليل والنهار ـ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض.. فإنه لم يغض ما فى يده»[1]].

مضاعفات الحسد

وللحسد مضاعفاته الدينية.. والاجتماعية.. والخلقية. والنفسية.

أما من الناحية الدينية:

فهو عدم الرضا بقضاء الله تعالى وقدره.. ثم توجيه الإرادة الإنسانية فى اتجاه معاكس لحكمة الله تعالى فى توزيع الأرزاق.

ومن الناحية الاجتماعية:

فهو الأنانية البغيضة.. التى ينطوى بها الضمّير على إرادة زوال النعم.. وإذا فسد الضمير بهذا العفن ضاع الحارس اليقظ على سلوك الإنسان فصار حيوانا.. ولم يصبح إنسانا.

أما من الناحية النفسية:

فحدِّث ولا حرج عن الأضرار البالغة التى يجلبها الحاسد على نفسه.. وباختياره: ذلك بأن الحسد بذرة رديئة فى القلب.. تمتد لها مع الأيام جذور.. وتتفرع أشواك..

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٦٩١ ـ كتاب الزكاة ـ والنص من كنوز السنة ص٤٥٧، ٤٥٨.

وإذا كان الحقد وحشا ضاريا رابضا فى القلب يشتعل نارا. فالحسد هو ذلك الوحش نفسُه خارجا من القلب مكشِّرا عن أنيابه يريد الانتقام.. وتصور إنسانا لا يستريح عند رؤية نعمة.. ثم تتحول نقمته إلى إرادة تظل متربصة حتى تزول النعمة عن: أخيه.. المسلم.. والذى لم يأخذ منه هذه النعمة.. وقل لى بربك: هل يستريح؟!

والجواب: لا يمكن أن يستريح.. لأن خير الله تعالى كثير وفير سابغ.. ونعَمُه لا تحصى على عباده.. ولن يكون القدر أبدا على مزاج هذا الحاسد.. ومعنى ذلك أن غمه لن ينقطع لحظة من زمان.. لأن نعم الله تعالى لن تنقطع لحظة من زمان أيضا.

إن كل حريق.. يُطفأ. وكلّ نار تخمد. إلا حريقا يشب فى قلب حاسد لئيم.

ونتساءل: ماذا عن حياة الحاسد الحاقد؟

لقد صَارَتْ حياته عذابا واصبا.. ما دام حيًّا.

١ـ فغمه لا ينقطع.

٢ـ ثم هو فى مصيبة.. ولكن لا يؤجر عليها.

٣ـ وفى مذمَّة لا يحمد عليها.

٤ـ جالباً بذلك سخط الله تعالى عليه.

٥ـ وينتهى ذلك كله بإغلاق باب التوفيق.. لتسلمه موجة إلى موجة.. ليصير من الهم فى لجج كالجبال إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وما ظنك بجاهل جاهل.. يضر نفسه من حيث يريد نفعها بل قد يطلب الضرر باختياره: كان فى جيش ملك من ملوك صقلية جنديان:

أحدهما شديد الحسد. والآخر شديد البخل.

أَحْضَرهما الملك يوما إلى قصره بقصد التلهى بهما فقال لهما:

ليطلب أحد كما منِّى المكافأة التى يريدها. فينالها فورا. وزميله يأخذ ضعفها، وسكت كلاهما... لأن البخل والحسد قد عقد لسانيهما.

وأخيرا. أمر الملك الحسود بالتماس ما يرغب فيه فقال: «أريد يا مولاى أن تُفقأ إحدى عينى» [وطلب ذلك لتفقأ عينا رفيقه] فغضب عليهما الملك. وإنهال عليهما تعنيفا. ثم صرفهما خَجلين. خائبين].

ولعل اختيار الملك للحاسد.. لِمَا وقر فى النفوس من خطورة علته التى لم يرتق إليها البخل على ما فيه بوار.

أوسع مجالات الحسد :

يقول ابن حبان فى كتابه «روضة العقلاء»:

[وأكثر ما يكون الحسد بين الأقران.. أو مِنْ تقارب الشكل: لأن الكَتَبَة لا يحسدها إلا الكتبة. كما أن الحَجَبَة لا يحسدها إلا الحجبة. ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا.. إلا وجد فيها من يُبغضه عليها. أو يحسده فيها.

والحاسد خصم معاند: لا يحب للعاقل أن يجعله حكما عند نائبة تحدث.. فإنه إن حكم.. لم يحكم إلا عليه. وإن قصد لم يقصد إلا له. وإن حَرَم لم يحرم إلا حظه. وإن أعطى.. أعطى غيره.. وإن قعد لم يقْعد إلا عنه. وإن نهض لم ينهض إلا إليه... وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعمُ التى عنده.

فليحذر المرء ما وصفتُ من: أشكاله. وأقرانه. وجيرانه. وبنى أعمامه.

قال رجل لشبيب بن شَبَّة: إنى لأحبك! قال: صدقت.

قال: وما عِلْمُك؟ قال: لأنك لست بجار. ولا ابن عم]!!

وإذا كان لنا أن نتحفظ على هذه النظرة التى لا يمكن أن تكون على إطلاقها إلا أننا ننتزع من حياتنا أيام أن كنا نطلب العلم.. والتى يتراءى فيها زميلنا الذى كان متعثرا فى دراسته.. وكيف أنه كان بحيث لا يخاصمه أحد.. بينما الذكى الباقعة.. لا يصفو له الجو أبدا.. لأن نعمة التفوق تخلق له أبدا حسادا..

وما كان عليه إذا أراد أن يكون مَرْضيًا عنه من الجميع إلا أن يكون مع المتعثر فى القاع. وهيهات أن يختار السقوط بعد أن رفعه الله! وقد عجزنا صغارا أن نحل هذه المعادلة الصعبة.. لكننا بعد التجربة عرفنا السر الكامن والذى عبر عنه الشاعر بقوله:

طهارة بعض الناس حرب عليهمو   وفضلهمو خصم لهم وغريم

وقول الآخر:

إن العرانين تلقاهـا محسَّـــدة ولا ترى للئام الناس حسـادا

والقول الفصل ما قاله عمر رضى الله عنه:

[ما من أحد عنده نعمة إلا وجدتُ له حاسدا.. ولو كان المرء أقوم من القِدْح.. أى من السهم ـ لو جدت له غامزا]

ويا لها من زكاة لابد أن يستعد الفضلاء لأدائها.. عندما يبلغون ما يريدون.. ليتسلحوا بالصبر.. ومواصلة المسير.. فى وضوء هذه القاعدة:

إنك إذا بلغت أقصى ما تحب.. فتوقع.. أقسى.. ما تكره!

علاج الحسد:

ربما كانت هناك تجارب مرة خاضها أناس فضلاء مع الحاسدين.. فكانت لهم غضبة مضرية تُنحى باللائمة.. بل تشدد النكير على الحاسد.. داعية عليه بالويل والثبور.. ليصير وحده حطبًا لنار أشعلها بنفسه. ليريح الناس من شره.. ومن حيث لا يحتسبون. ومنهم ذلك الشاعر القائل:

دع الحسود وما يلقاه من كمده يكفيك منه لهيب النار فى كبده

إن رمتَ ذا حسد فرّجْتَ كُربته وإن صَمَتَّ عنه عذَّبتـه بيـده

وهذا واحد من ضحايا الحسد المدمر.. يعزى نفسه بأنه ليس الضحية الأولى لكيد الحاسدين.. بل هو واحد من أهل الفضل يدفعون ضريبة هذا الفضل. راجيا من الله تعالى أن يُبقى عليه ماضيا إلى العلا.. بينما يظل غريمه فى السفح يموت كمدا.. قال:

إن يحسدونى فإنى لا ألومهم... قبلى من الناس أهلِ الفضل قد حُسدوا

فدام لى. ولهم. ما بى.. وما بهمو... ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقد يصل بهؤلاء غضبهم إلى أن علاج الحاسد هو: البعد عنه.. لماذا؟

لأنه لا ينفع معه علاج .فهو بحكم جبلته: كلما رأى نعمة عليك. حسدك.. فأحس بالوحشة.. وأساء الظن بالله تعالى.. ثم نما الحسد فى قلبه وتمدد..

ومن هنا قالوا: ليس للحاسد إلا ما حسد ـ وله البغضاء من كل أحد.

وأرى الوحدة خير للفتى ـ من جليس السوء فانهض إن قعد.

والحل الإسلامى خيرٌ وأبقى من هذه النزعة الناقمة.. وإن كان لها ما يسوغها.. أحيانا على الأقل.

ونبدأ هذا الحل بسؤال: على من تجب الزكاة؟

والجواب: على من ملك النصاب.

وهى نفس الحقيقة التى تفرض نفسها هنا: لقد ملكت أيها المحسود النصاب.. ونصابك هنا: فضائل وشمائل.. فأدِّ زكاتها تسامحا.. وعفوا.. وعونا لأخيك.. ليبرأ من علته.. ولا تكن مع الشيطان عليه!

١ـ وتبدأ رحلة العفو من تصور وضع الحاسد.. والذى هو فى النهاية شهادة لك.. لا عليك:

ذلك بأن الحاسد لا يحسُدك على عيب فيك.. ولا على خيانة ظهرت منك.

ولكنه يحسدك على نعم الله عليك.. وذلك قول الشاعر:

أفكِّر: ماذنبى إليك فلا أرى   لنفسى جُرماً غير أنك حاسد

٢ـ ضرورة التواضع.. ونبذ التباهى بالنعمة فرارا من شرِّ حَاسدٍ يغيظه ذلك.. معتقدا أن ما لديك من نعم الله تعالى.. لا تستحق بعضها.

ذات يوم.. سأل عبد الملك بن مروان عبد الله بن يزيد بن خالد. عن مقدار ما يملك من المال والثروة.

فقال: يا أمير المؤمنين: شيئان لا عْيلة علىَّ معهما: الرضا من الله. والغنى عن الناس

فلما خرج عبد الله قال له أحدهم: لماذا لم تُخبر الخليفة بمقدار ثروتك ومالك؟

فقال: لأن ما أملكه: لا يعدو أن يكون قليلا فيحقرنى. أو كثيرا فيحسدنى.

٣ـ لابد من تنحية مشاعر الانتقام.. لتأخذ مشاعر الإشفاق مكانها فى قلبك على رجل مريض.. نجَّاك الله تعالى من مرضه.. فكنت فى الموقف الأفضل..

ومشاعر الإشفاق فى قلبك أجدى من حدة الانفعال الذى يزيد النار اشتعالا.

وقفة مع الحاسد

ونقول للحاسد: ينبغى أن تشفق على نفسك أنت أولا.. قبل أن تذهب حسرات.. من أجل أوهام حملتك على أن تظن السعادة فيما يملك غيرك. وقد تملك أنت من الذكاء.. والفطنة.. وحسن التدبير.. لكنك تعطل هذه الملكات.. لتشغل نفسك بما لا تملك تغييره.. ومن الخطأ أن ترصد كل طاقتك.. فى تتبع نعم الله تعالى على الآخرين.. غافلا عن ما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون:

لقد خَدعْتنا المظاهر عن مكنون الجواهر ... وراعنا الزبد فوق الماء.. تراقص أشعة الشمس من خلاله.. فَشَغلَنَا عما فى الأعماق من جواهر.. وصار الأمر على ما يقول ابن أدهم: ذم مولانا الدنيا.. فمدحناها... وأبغضها.. فأحببناها. وزهَّد فيها.. فآثرناها. ورَغبْنَا فى طلبها.. وليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك!!

إنه ما دام الإنسان يحب الرقى.. فالطريق إليه ليس بهدم الآخرين ولكنك للأسف - وبالحسد - تهدم نفسك أوَّلا.. وأخيرا. فإذا أحسست بقلبك بين ضلوعك فَرَساً جامحا.. فغيِّر وجهته إلى مجالات التنافس الشريف.. والسباق العادل.

مع العلم بأن نعمة المحسود لن تزول.. لتصل إليك.. ولو اتبع الحق هواك لأزال نعمه عليك أنت أيضا.. والتى يحسدك الآخرون عليها.. وأنت لا تشعر.

ثم إنه من علامات الإيمان: الرضا بما قسم الله تعالى: وإلا فالأمر على ما قيل:

إن كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما فى الأرض لا يكفيكا

أنصفْ الناس من نفسك:

فأنت تريد أن تنعم بما تستحق.. فدع الآخرين لينعموا بما يستحقون.. يُعينك على ذلك إيمانك وما يثمره من قناعة: إن السعادة لَتَنْبُت فى القلب.. والقناعة غذاؤها. وماؤها. وهواؤها.

ومن الناحية العملية: عليك أن تتصدى لمشاعر الحسد فور بروزها:

قال العلماء: إن العاقل إذا خطر بباله ضرب من الحسد لأخيه.. ماذا يفعل؟.

أولا: أبلغ المجهود فى كتمانه.

وثانيا: واترك إبداء ما خطر ببالك..

وثالثا: إن أمامك على الطريق نماذج من البشر غالبوا نزعة الحسد فى أنفسهم فغلبوها.. فحاول أن تسير على دربهم.. ومنهم ابن سيرين الذى قال: ما حسدت أحدا على شىء من الدنيا.. لماذا؟

لأنه إن كان من أهل الجنة.. فكيف أحسده على شىء من الدنيا.. وهو يصير إلى الجنة... وإن كان من أهل النار.. فكيف أحسده على شئ من الدنيا - وهو صائر إلى النار؟

ثم إنك بحكم إسلامك مفروض أنك تحب النعمة لك.. وللناس الذين هم مثلك مسلمون.. ومن دعاء المسلم كل صباح: [اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فهى منك وحدك فلك الحمد].

وإذا كان ولابد من تطلع إلى الغير.. فلتحسد ذلك الغير إن كان غنيا.. لكنه الحسد على الطريقة الإسلامية:

أن تحسد الأغنياء.. لا من حيث كونُهم يجمعون المال.. ولكن لأنهم ينفقون هذا المال فى سبل الخير... متمنيًا أن تكون مثلهم: تسارع: فى الخيرات.. إلى الخيرات.

ومنهم أيضا حاتم الأصم.. الذى أراح واستراح عندما أُلهم الصواب فى نظرته إلى الناس.. وإلى الدنيا.. قال فيما يشبه النقد الذاتى: نظرت فى هذا الخلق:

فأحببت واحدًا. وكرهت واحدا

فالذى أحببته من الناس.. لم يعطنى.. والذى كرهته.. لم يأخذ منى شيئا.. فقلت فى نفسى: من أين أُتيتُ!.. فعرفت أنه: من الحسد!

فطرحت الحسد من قلبى.. فأحببتُ الناس كلهم.. وكلُّ شىء لم أرضه لنفسى.. لم أرضه لهم.. وما زال الطريق مفتوحًا أمام كل مسلم.. ليصل إلى مثل ما وصل إليه المؤمنون العاملون.

من التحاسد
إلى التعاضد

مقياس الحب :

عندما شاهد الرجل الطيب صديقه من بعيد قال: هذا الرجل يحبنى. وتساءل الجالسون فيما يشبه الاعتراض قائلين:

أنْ تحبه أنت فهذا شأنك الذى تملكه.. وتعلنه.. أما أن تحكم بحبه لك فهذا شأنه هو.. ولا تملك دليلا عليه.. فقال الرجل: إنه يحبنى.. لأننى أحبه!

أى أن دعوى حب صديقه له.. لم تنبت ابتداء فى قلب هذا الصديق.. وإنما بدأت أولا فى قلبه هو.. فلما راض قلبه على المودة.. واستقامت له.. كان من ثمراتها أن أحبه الآخرون.

وكلما تنامى رصيد الود فى قلبه.. كلما اتسعت دائرة المحبين.. لقد اقتلع من قلبه أشواك الكراهية أولا.. وبهذا الجهد المشكور اقتلع - وفى نفس الوقت - بذور الكراهية من قلب صاحبه! وإذا كان هناك من يشكو من تجهم الآخرين.. فليعلم أنه سمم البئر الحلوة خلف ضلوعه.. وهو قلبه.. بكراهية الآخرين.. فماذا تنتظر بعد أن زرعت الشوك؟.

وهل يُنبت الخطىَّ إلا وشيجه وتنبت إلا فى منابتها النخل؟!

قلب المؤمن

وإذا كانت هذه قاعدة تحكم العلاقات الإنسانية.. بين البشر.. فإن للمؤمنين منهم شأنا آخر:

لقد أضاء الإيمان قلوبهم.. فكانت بِنُورِه واسعة واسعة.. وربما اعترضتهم أحقاد وأطماع.. ولكنها تذوب فى بحورهم المترامية.. بل إنهم ليتخذون من هذه العقبات سبيلا إلى الرقى فى مدارج المعالى:

قال أحد الصالحين: ثلاثة أحبهم:

١ـ من يحبنى.

٢ـ ومن يكرهنى.

٣- ومن لا يهتم بى.

ويحاول العابد الصالح حل المعادلة الصعبة فيقول:

أما من يحبنى: فيعلمنى الرقة والحب.

وأما من يكرهنى.. فيعلمنى الحذر

وأما من لا يهتم بى.. فيعلمنى بعد الله: الاعتماد على النفس!

ونذكر هنا رجلين.. أو نموذجين:

هما صديقان يسيران فى صحراء.. فاعترضت أحَدَهما صخرة فاستسلم لها.. إن له رؤية بصريِّة.. ولكن ليس له رأى.. ليست له بصيره..

أما الآخر.. فقد اعتلى الصخرة.. وجعل منها درجة صاعدة فى سلم المعالى.. وهكذا المحبون.. المؤمنون!

ومنهم ذلك الشاعر القائل:

عداى: لهم فضل علىّ ومـــنة	فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبْتها	وهم نافسونى فاكتسبت المعاليــا

نهر الحب المتدفق

ولا تتولد المحبة بين المؤمنين بطول العشرة.. ولكنها تنمو وتقوى بالمدد الروحى والذى يتم فى لحظة مباركة.. لولاها ما أفادت العشرة الطويلة.. ومن هذا المدد.. ما تحدث عنه القرآن وهو ذلك النهر المتدفق من الحب بين المؤمنين جيلا بعد جيل:

يقول تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وانت أمام نهر من الحب يتدفق عبر الزمان جامعا بالإيمان بين قلوب المؤمنين:

كل يحب من سبقه.. بل ويدعو له.. بحيث لم يقطع الموت هذا الوداد الموصول:

وأين من هذا المجتمع النظيف مجتمع خلا من هذا الإكسير.. إكسير الحياة وهو مجتمع المنافقين.. والذى صورته الآية التالية مباشرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾[2].

وهكذا يجمع الحب المبارك بين المؤمنين: أحياء وأمواتا.. فكانوا به هم

(١) الحشر: ٨ ـ ١٠.

(٢) الحشر: ١١، ١٢.

المفلحون وكانوا هم الصادقون.

فى الوقت الذى خلا فيه قلب المنافق من هذا الود.. فأقسموا بأغلظ الأيمان تغطية لهذا الخواء.. ولكن الأمر على ما قيل:

فليس فيهم من فتى مطيع كلهم أروغ من ثعلب!

مستويات الحب

أعلى مستويات الحب: حب الله تعالى:

جاء فى صالون العقاد:

الحب له أذنان .. ولكنه لا يسمع

وله عينان .. ولكنه لا يرى

وله عقل .. ولكنه لا يدرك

وله قلب .. ولكنه لا ينفعل.. ولا يدُق!

ليست بينك وبين من تحب مسافة ...

فلست فى حاجة إلى ذراع تمدها ...

ولا إلى شفة تفتحها..

ولا إلى عقل تدرك به..

أو قلب يخفق بكل ذلك..

ولكنك تجد جسمك.. وحياتك: وقد ارتطمت بشىء عظيم.. ثم تهشمت.. وانسحقت.. ثم انعدمت..

فإذا انعدمَتْ.. فذلك لوجودها فى شىء آخر..

وأنت لا ترى.. لأن نور الله باهر..

ولا تسمع.. لأن صوت الله تعالى يملؤها:

وهذا معنى أنك تحب الله تعالى.

حب الرسول ﷺ

أما حبك للرسول ﷺ فشيء يفرض نفسه: فأنت تحب الإنسان لأمرين:

لِشَرَفه.. أو لفائدته..

والرسول ﷺ أشرف مخلوق والرسالة التى جاء بها أعظم فائدة فى الوجود: لقد أخرجنا الله تعالى به من الظلمات إلى النور.. وإذا كان العالم كله لا يستطيع أن يقلع الحب من قلب طفلين.. فإنه لن تستطيع الدنيا أن تذهب بحب الرسول ﷺ من قلوبنا وسوف يظل يلمع.. كالنجوم.. وكل ما حوله مظلمٌ.. باردٌ.. إنه: عاصفة.. بحر متدفق بالود.. فلا يجف أبدا!

ثمن هذا الحب

قال رجل: يا رسول الله: والله إنى لأحبك.

فقال: **«انظر ماذا تقول؟»**

قال: والله إنى لأحبك. ثلاث مرات.

فقال ﷺ: **«إن كنت تحبنى.. فاعدَّ للفقر تجْفَافاً. فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه»**[1].

ويعنى ذلك: أن الفقر يسرع إلى من يحب النبى ﷺ.. وتلك تكاليف القدوة.. لأن حب المسلم له: سيحمله على إنفاق ماله فى السراء والضراء.. ولن تبقى له الأريحية الإسلامية مالا.. وعليه أن يتحمل مسئولية الحب من الآن.. إن المحب لمن يحب مطيع!

كن بلسما إن صار دهرك أرقما	وحلاوة إن صار غيرك علقما
إن الحياة حبتك كل كنوزها	لا تدخلن على الحياة ببعض ما
أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا	لولا شعور الناس كانوا كالدمى
أحبب فيغدو الكوخ قصرًا نيرا	أبغض فيمسى القصر سجنا مظلما
من ذا يكافئ زهرة فواحة	أو من يثيب البلبل المترنما

(١) الترمذى: وقال حديث حسن :انظر رياض الصالحين (٢٤١).
والتجفاف: شيء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى. وقد يلبسه الإنسان.

عُدّ الكرام المحسنين وقسهما	بهما.. تجد هذين منهم أكرما
يا صاح: خذ علم المحبة عنهما	إنى وجدت الحب علما قيما

حب الناس

أما حبك الآخرين فشيء آخر:

إن بينك وبين من تحب مسافة.. فلابد أن تمد يديك.. وأنت فى حاجة إلى أشياء كثيرة كى تظفر بِحُبٍّ من تحب!

فإذا وصلت إلى غايتك.. وحقق الله أملك.. فما أسعدك عندئذ حين تحس بقلبك يخفق بحب الآخرين.. وحب الخير لهم.. بل بتحققه لهم فعلا..

وحتى فى اللحظات التى تُقابَل فيها بالشر.. فأنت لا تتخلى عن مبدئك فى مودة الآخرين.. ففى هذا الود سعادتك..

ولو علم الكارهون الخير للناس كم يُعَذِّبون أنفسهم.. لراجعوا حساباتهم فى محاولة لتصفية القلب من أوشابه ليكونوا مثل غيرهم.. سعداء.

ويا لها من لمحة مضيئة تلك التى قالها حكيم:

[لا يغذى الحب إلا الحب فكلما أحببت الناس وأعطيت من قلبك أضفت إليه من قلوب الناس دما جديدا].

أولى الناس بالحب

وأولى الناس بالحب هم: الصالحون من المؤمنين الذين يحبون الله ورسوله لأنهم بصلاحهم صاروا أعقل الناس.. ومن ثم أولاهم بالحب والتقدير.

قال الفقهاء: لو وصى رجل فقال: ما أملكه لأعقل عائلتى.. فهو للصالحين منهم.. لأن المطيع أعقل الناس على ما يقول سبحانه: ﴿**وأولئك هم أولوا الألباب**﴾.

وعلى هذا الأساس كانوا يعتزون بأقربائهم.. حتى كان الأنصار يقولون: منا غسيل الملائكة..

ومنا من اهتز له عرش الرحمن

ولم يقولوا منا الغنى.. أو القوى..

لقد منحوا ولاءهم للطائعين لأنهم كما قيل: أيسر الناس مئونة (قانعون لا يكلفونك) وأكثرهم لك معونة:

إن نسيت ذكّروك.. فإن ذكرت.. أعانوك... وإن أعانوك.. أخلصوك..

وبعد هذا كله لا يسألونك على ما قدموا جزاء ولا شكورا!

وما أكثر الذين يواجهونك بعبارات الحب قولا.. ولكن: إذا كانت المودة تتوهج بالقول.. فإنها تمتحن بالتضحية.. بالوقود الذى يزيدها توهجا.

حب الوطن

سأل معاوية رضى الله عنه «عقبة بن سنان الحارثى»:

أى المال أفضل؟ فقال: نخلة سمراء.. فى تربة غبراء

أو نعجة صفراء.. فى بقعة خضراء... أو عين خرارة.. فى أرض خواره.

فقال معاوية: فأين أنت من الذهب والفضة؟ فقال: يا أمير المؤمنين: وما للعاقل ولهما؟!.. حجران يصطكان: إن أقبلت عليهما.. نفدًا.. وإن تركتهما.. لم يزدادا!!

وتَرْسُم الإجابة صورة للوطن الحبيب.. هناك فى أحضان الطبيعة الساجية فيما يشبه البحيرة الساكنة: نخلة.. تطاول السماء.. فى أرض خصبة.. وشاة ترعى فى خضرة الوادى العاشب.. ومن تحت ذلك كله تجرى الأنهار من عين ثرة. عبر أرض خصيبة غير جديبة سهلة لينة بعيدا عن المال وفتنته..

وهو درس أيضا فى حب الوطن الذى على أرضه مشينا:

ولا يُغنى حب الوطن بمعناه الكبير.. عن حب الوطن الصغير.. القرية..

وإذا كانوا يقولون: من أحبنى.. وكره أخى.. فلا خير فيه لنا.. معا.. فإننا نقول وبنفس القوة: من زعم حب الوطن الكبير.. ثم نسى أن يحب قريته.. فلا خير فيه.. لهما معا!!

ولعمرى: إن القرية لَمدرسة.. وكل ما فيها.. ومن فيها يعلمك كيف تكون

وفيًا.. ودودا.. أليفا... بسيطا.. قانعا.. أى: كيف تكون مواطنا صالحا:

تأمل الكائنات الحية هناك.. ثم استمع ماذا يقول العلم عنها: [إن الكائن الحى قادر على أن يصطفى من بيئته ما يلائمه من مواد وبالمقادير التى تلزمه منها ولديه من الأجهزة العضوية والأنظمة الكيماوية ما يمكنه من تحليل ما يأخذه.. ليصوغه بنيانا جديدا يتفق وفطرته].

وهو درس فى القناعة يضاف إلى حكمة «عقبة بن سنان». والقناعة سبيل إلى الحب.. بقدر ما كان الطمع تلك الصخرة التى يقذفها الشيطان فى البحيرة الساكنة.. فيعكر صفوها.

ثم أرأيت إلى الطير: صافات ويقبضن؟

إنه أبدا.. يحن إلى عشه.. إلى وطنه الأول: إنه يطير محلقا هنا.. وهناك.. وقد يصادف جنات ونخيل.. لكنه دائما يحن إلى العش.. نفس العش القديم: يحن إليه.. بل إنه لا يخطئه إذا عاد إليه.. بل ويدافع عنه حتى الموت!

فكيف بالإنسان: الذى بذل كل ما يملك فى حَدِّ حدود وطنه على الأرض.. كيف لا يحبه.. وفيه غريزة حب الوطن ضاربةُ الجذور.. والتى أودعها الله تعالى فيه؟

كيف لا يحب مكانا: نشأ فيه.. وهناك.. تحت سمائه أحباؤه؟

إلى الحب من جديد

إن كل شىء فى القرية يوحى بالمودة. ويزكيها: الطير.. والنبات.. والأرض..

فمتى نعى هذا الدرس المفيد:

قلت للفلاح فى قريتى : كنت معك يوم أن خرجت إلى الحقل مبكرا.. ومعك من الحبوب أقداح.. وبينما كان حُداؤك العذب يملأ سمعى.. كان بصرى على حبة القمح.. وتأملتها.. فماذا رأيت؟

نقطة فى بطنها.. ونقطة فى ظهرها..

فإذا توارت الحبة فى التراب.. ماذا حدث؟

كان من أثر قدرته سبحانه وتعالى.. أن أخرج من نقطة نباتا.. يشق الأرض بازغًا..

ومن النقطة الأخرى: جذورا تغوص فى الأعماق.. تمسك بالنبتة البازغة أن تعصف بها الريح..

من الذى هيأ للحبة مرقدها فى التربة.. إلى أن آتت أكلها؟

وقلت لك: تصور نفسك - لو وكَلَك الله تعالى إلى نفسك - وقد بقيت فى أرضك تضع كل حبة لتكون مهيأة: النبات إلى أعلى.. والجذور إلى أسفل؟!! سوف تظل هكذا.. حتى يزول فصل الشتاء وأنت قاعد فى حقلك!! تعد مثل نجوم السماء.. ثم لا يكون زرع.. ولا ضرع!!.

وإذا كانت الأرض آتت أكلها.. ولم تظلم منه شيئا.. فقد بقى عليك أن ترد الجميل.. من قلبك: شكرا لله تعالى.. وحبا لعياله..

ثم قلت لولده المتعلم.. المشغول بالدعوة:

فلنذاكر الدرس معا.. ودائما:

فليكن الحَبُّ هناك.. فى الأرض.. وليكن الحبُ هنا.. فى القلب!!

الطريق إلى الحب

وينطلق المسلم إلى الحب فى الله صادرا عن قاعدتين:

أ - حسن صلته بربه تعالى..

ب - ثم ترويضه نفسه وقلبه على التزام جادة الصواب:

أما عن الأولى:

فالمؤمن ينصف ربه من نفسه:

[يُقر له بالجهل فى علمه. والآفات فى عمله.. والعيوب فى نفسه.. والتفريط فى حقه... والظلم فى معاملته... فإن أخذه بذنوبه.. رأى عدله.

وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله! وإن عمل حسنة رآها من منته وتوفيقه.

وإن عمل سيئة رآها من إمساك عصمته. عنه وخذلانه.. وذلك من عدله. فيرى فى ذلك فقره إلى ربه، وظلمه فى نفسه: فإن غفر له فبمحض إحسانه وكرمه فلا يرى المؤمن ربه إلا محسنا.. ولا يرى نفسه إلا مسيئا..

فكل ما يسره من فضل ربه عليه.. وإحسانه إليه. وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه](1).

وأما عن الثانية: فإن الأمر على ما قال المربون:

[حصِّن عقلك من العجب.. وحياءك من الرخاوة.. وحلمك من التهاون.. ومصابك من العجلة.. وعقوبتك من الإفراط.. وعفوك من تعطيل الحدود.. وصمتك من العى.. واستماعك من سوء الفهم.. واستئناسك من البذاء.. وخلواتك من الإضاعة.. وتعاهدك من استفراغ القوة.. وعزماتك من اللجاجة.. ويأسك من القنوط.. ورضاك من الفوت.. وتأنيك من البلادة.. وفرحاتك من البطر.. وروغانك من الاستسلام.. ومداراتك من الجبن](2).

---

(1) عن المرحوم الشيخ ماهر إسماعيل

(2) من حكم الله ـ

صنع الحياة

الحب والدعوة

جلس الضيوف فى بهو الدار الواسع حول مأدبة الطعام.. وأحسست بصاحب الدار باسم الوجه.. قرير العين.. وهو ينظر إلى ضيوفه يأكلون ويتسامرون.. وقلت: هكذا الكريم دائما: يحب الناس وقد رآهم يتقلبون فى نعمته.. وقالت نفسى:

إذا كان هذا شأن الغنى الكريم.. فكيف بأكرم الأكرمين سبحانه وتعالى: إنه يحب عباده يتمتعون بنعمته..

وإذا كانت الحياة أجل نعمه سبحانه.. فهو تعالى أشد فرحا بمن يصونها.. ويشكرها بالحفاظ عليها.. على حياته هو. ثم على حياة الآخرين. وبنفس القوة!

ولقد كان سنته ﷺ أنه يحب الحياة: ينزل المطر.. فينهض شاكرا لله..

ويرى التمر البازغ فيقول: ربى وربك الله.. ويرى الثمر طالعا.. فيهش لنعمة غضة.. قريبة العهد بربها.

حب الحياة بأوسع معانيها

وكان حب الحياة والأحياء سنة تلقاها أصحابه بالقبول.. حتى الحفاظ على حياة الأعداء:

أرسل وفدا من الصحابة يجمعون الزكاة.. فلما جاءوا فى الطريق.. نزلوا بحى من أحياء العرب.. فأبوا أن يضيفوهم.. بعد أن طلبوا ذلك.. ثم باتوا جياعا.. وكان من تدبير الله تعالى أن يلدغ سيد هذا الحى الذى أسرع أهله إلى الوفد المسلم.

فسألوا: هل فيكم من راقٍ؟

وقبل الوفد المسلم أن يرقى أحدهم سيد القوم شريطة أن يجعلوا للوفد قطيعا من الغنم! وتم الشفاء بعد أن قرأ الصحابى عليه سورة الفاتحة..

اتّباع الرسول

ومع جوع الصحابة رضوان الله عليهم.. إلا أنهم لم يتصرفوا فى الغنم حتى يسألوا رسولهم عن حكم الله فيها.. ومع أنهم جياع.. ولهم مندوحة فى الذبح.. لو ذبحوا.. ومع أنها شاة واحدة تكفيهم حتى يعودوا إليه.. رأس غنم.. وليست رأس إنسان.. لكنهم صبروا حتى يأتيهم اليقين.

ماذا فى الموقف من دروس؟

١ـ الذين يتحدثون باسم الأمة. لابد أن يكونوا: أتقياء. أذكياء. وتلك مسئولية الحاكم المكلف باختيار أفضل العناصر المرشحة لمهمة مالية تزل فيها الأقدام..

ولقد كانوا أتقياء بدليل ما أجرى الله على أيديهم من الشفاء.. بسورة ما كان لها أن تؤثر لولا قلب المؤمن العامر باليقين..

ثم كانوا أذكياء: تمنعهم تقواهم أن يخدعوا.. ويمنعهم ذكاؤهم أن يُخدعوا..

فكان هذا الأدب.. وتلك الجزية.. المتمثلة فى قطيع الغنم. إنهم مسلمون.. متدينون تدينا منحهم قدرة على حسن التصرف فى المواقف الصعبة.

٢ـ إن الإيمان حياة.. والمؤمنون يحبون الحياة حتى لمخالفيهم فى الدين.. ومن ثم.. لم يضنوا على سيد القوم بالحياة رغم نذالة ما صنعوا موقنين بأن رب الدعوة سبحانه يدبر لها.. ومن تدبيره تعالى أن يلدغ سيدهم بالذات حتى يفزعوا.. وحتى يدفعوا ! وما على الدعاة إلا أن يؤدوا دورهم.. والنتيجة بعد ذلك على الله.

الرسول سعيد
بمن يحبون الحياة

وعاد الوفد الظافر.. وكان أثمن ما ظفر به رضا الرسول ﷺ.. نعم لقد نجا سيد الحى.. فهل خسر الإسلام شيئا؟

لقد كان من سنته ﷺ فى أحرج لحظاته أن يدعو للظالم.. لا عليه.. فماذا كانت النتيجة؟

حقق الله تعالى رجاء رسوله.

فأخذ الإسلام «عمرو بن العاص» من أبيه العاص بن وائل وكان جبارا عتيا.

وأخذ من «عقبة بن أبى معيط» ابنته «أم كلثوم» التى كان إسلامها طعنة لأبيها..

ثم أخذ «عكرمة» من ظهر أبى جهل عدو الله!

وهكذا.. ولد هؤلاء بالإسلام من جديد.. هدية من الله تعالى لمن تعلم صناعة الحب.. والعفو.. والتسامح..

حتى مع قريش

فى ظروف استثنائية دعا ﷺ على قريش بالقحط.. يعنى: بالموت لكنه دعاء الوالد.. يتحرك لسانه.. بينما القلب هناك مشفق على ولده العاق. بدليل أن أبا سفيان ـ وهو على دين قومه ـ جاء إليه ﷺ وقال له: يا محمد: إنك تدعو إلى صلة الرحم وقد دعوت على قومك وقد قحطوا فادع الله أن يسقيهم. فدعا لهم فأمطروا.

وهكذا يعالج أشد الأعداء سكرات الموت.. ويقف المسلم إلى جانبه بقلبه الكبير.. ليظل مثله حيا.. يستمتع بحياة.. هى منحة من الله تعالى.. ومن عرف قدرها.. عز عليه أن يهدم بنيانها!.

مسلمون.. سنّيّون

وفى دولة أوربية قحطت الأقلية المسلمة فاستسقوا. فسقاهم ربهم شرابا طهورا.

وطمع أهل الذمة فيهم أن يستسقوا لهم.. فكان أن التزم المسلمون بقاعدة الإسلام فى احترام الحياة.. فخرجوا فاستسقوا لأهل الذمة. فجاءهم من ربهم المطر.. وكانت فرصة.. بدا فيها وجه الإسلام الطيب.. بهذا الوابل الصيب بهذه السماحة التى هى ميزة الإسلام وخصيصة المسلمين.

الفضيلة المشرقة ..

إلى متى تظل الفضيلة عابسة.. والرذيلة مشرقة؟

إن أعداء الحياة.. يزينون الرذيلة بصور من الجمال الذى يخفى المنبت السوء؟ لقد أخذوا «العنب» فعصروه خمرا أسكر عشاق الدنيا.. فلماذا لا يأخذ الدعاة «قطف العنب» ليأكلوه هنيئا مريئا.. ولا يمكنوا العابثين من أن يسقوه الناس خمرا.. تذهب بالعقل.. ثم تذهب بالدين فى نهاية المطاف؟

أسوة

فى حبه ﷺ

والفرق هائل بين حبك إنسانا مثلك.. وبين حبك رسول الله ﷺ..

يحب البشر بشرا.. فيتخذ من الخيال جناحين يطير بهما.. فى رحلة وهمية يصطدم فى نهايتها بالواقع الذى يفجؤه بأنه ما زال فى مكانه يدور حول نفسه !! ونستعير هنا قلم الشيخ الطنطاوى[1] حين يقول:

[يشعر - المحب - بالقوة قد ملأت نفسه. حتى تتفجر نشاطا واندفاعا... وبالعاطفة يكاد يتمزق من طغيانها قلبه... وأنه لم يعد يحتمل السكون والانطواء على نفسه بعد ما حركه الحب.. فهو يريد أن يصنع المعجزات:

أن يزيح الجبال.. أن يكون قائدا فيفتح بحبها الأرض.. وأن يكون شاعرا فيملأ بوصفها الأسماع.. أن يكون كاتبا فيخلّدها بروائع الأدب.. بكل مقالة هى أعظم من قلعة يشيدها ملك. وأمتن منها بناء وأعلى.. وأبقى على وجه الدهر.. تتخرب القلاع وهى باقية. وتنسى أسماء الملوك. ولا تنسى..]

هذه هى أحلام الواله المحب.. تمزقه أشواقه.. ثم لا يجد فى النهاية إلا السراب!

وكما يقول الشيخ أيضا: [هذا هو الحب.. ثوب براق تحمله المرأة وتمشى حتى تلقى رجلا. فتخلعه عليه فتراه أجمل الناس.. وتحسب أنه هو الذى كانت تبصر صورته من فُرَج الأحلام. وتراها فى ثنايا الأمانى .

(١) قصص من الحياة ٢٠٢ وما بعدها.

مصباح فى يد الرجل: يوجهه إلى أول امرأة يلقاها: فيراها مشرقة الوجة.. بين نساء لا تشرق بالنور وجوههن فيحسبها خلقت من النور. وخلقن من الطين: فلا يطلب غيرها.. ولا يهيم بسواها.. ولا يدرى أنه هو الذى أضاء محياها بمصباح حبه: خدعة ضخمة من خدع الحياة.. خفيت عن المحبين كلهم من عهد آدم إلى هذا اليوم. هذى حقيقة الحب.. فلا تسمع ما يهذى به المحبون].

أجل هذا هو الحب المعجون بتراب الأرض.

أما الحب بمعناه الشريف.. فشىء آخر:

ترى فيه المحبوب بعينى عقلك.. لا بعينى رأسك.. وتسمعه بأذن النفس.. لا بأذن الحس!

وكما يقول الشيخ أيضا: [ليس الحب ضمة ولا شمة. ولا قبلة:

الحب أن يرى المحبوبة فيحس فى نفسه جوعا سماويا إليها.. رغبة جامحة فى أن يفتح قلبه ويضعها فيه. ويضمه عليها.

الحب: ألا يفرّق بين الحبيبين الزمان ولا المكان ولا الميول ولا الأهواء: فيكون أبدًا معها: هواه هواها. وميوله ميولها، ويكون فى رأسه صداعها. وفى معدته جوعها. وفى قلبه مسراتها. وأحزانها.

وأن تكون له، ويكون لها.. وأن يدخلا معا مصنع القدرة الإلهية مرة ثانية، ويخرجا وقد صارا إنسانا واحد. فى جسمين اثنين..

فأين تروى جُرعات اللذائذ الحسية هذا الظمأ الروحى: إنها كالخل للعطشان: يشربه فيحرق أمعاءه، ويزيد ظمأه].

الحب فى الله

ويجىء الحب فى الله مثالا فريدا.. لا يقارن به حب بشر:

فالمؤمن يحب الله تعالى.. ومن ثم: يحب كل من يحبه سبحانه.. ولأن الرسول ﷺ أقرب إليه تعالى.. فحبه ﷺ أعظم وأكمل..

ومن الذين أحبوه فأعطونا بمودته أسوة حسنه عمر رضى الله عنه: لقد كان

يحب الرسول ﷺ: حيا.. وميتا.. وكان حبه من العمق والاتساع.. بحيث أحبه.. وكل من كان يحبه ﷺ.. وكان هواه تبعا لما جاء به ﷺ:

ولا نستطيع بالكلمات أن نعبر عن هذا الحب النبيل الجليل لأنه من ذلك النوع الذى يحس.. ولا يوصف.. فلنترك للمواقف أن تتكلم بلسان الحال بعد أن عجز المقال:

أ ـ حين أسلم العباس رضى الله عنه.. أقسم عمر رضى الله عنه أن إسلام العباس أحب إليه من إسلام أبيه الخطاب على شدة حرصه عليه.. لماذا؟

لأن إسلام العباس كان أحب إلى الرسول ﷺ.. فكان تبعا لهواه..

ولئن كان حبه لوالده الخطاب عاطفة.. ومن ثم فلا صعوبة فى الانتصارعليه لحسابه ﷺ.. فما بال حبه لولده من صلبه وهو يحبه غريزة.. وكيف يؤثر عليه أحدا؟

ب ـ فرض رضى الله عنه لأسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة.. ولابنه عبد الله ثلاثة آلاف .. فقال عبد الله رضى الله عنه:

لماذا فضلته على.. فو الله ما سبقنى إلى مشهد.. فقال عمر:

لأن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك.. وهو أحب إلى رسول الله منك.. فآثرت حب رسول الله على حبى(1).

بل إنه ليدافع عن أسامة لما طعن الناس فى إمارته.. وقد أخر طواف الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره.

وعندما مات ﷺ خرج يحمل سيفه..ليضرب من يقول إن محمدا قد مات.

أجل.. لقد بدأت حياة عمر الحقيقية بالرسول ﷺ.. فكيف لا يكون ـ كما قيل ـ موته نهاية لحياته؟

ولما سمع رجلين يرفعان صوتهما بمسجده ﷺ قال: أتدريان أين أنتما؟!

من أين أنتما؟ فقالا: من الطائف.. فقال لهما: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا!

---

(1) الترمذى ٣٨١٣.

ولما حضرت عمر الوفاة.. كان حنينه جارفا أن يدفن معه ﷺ.. فأرسل لعائشة رضى الله عنها من يستأذنها ليدفن معه..

ثم قال للرسول: قل لها عمر يستأذنك.. ولا تقل لها: أمير المؤمنين فإنى لم أعد أميرهم!

وعندما دنا منه أجله قال لولده عبد الله: بعد وفاتى.. اذهب إليها فاستأذنها مرة أخرى.. فلعلها استحيت منى وأنا حى.. فإن أذنت.. وإلا فادفنى فى مقابر المسلمين.

لم يكن حب عمر للرسول ﷺ رأيا ارتآه.. بل كان عقيدة تمشت فى عروقه دما.. وفرق بين الرأى.. وبين العقيدة: فالرأى يدخل فى دائرة معلوماتك، فأما العقيدة.. فَدَمٌ يجرى فى عروقك.

ولقد كان رضى الله عنه صاحب قلب كبير.. فقد يكون لديه حب أعظم من حب.. وتقدير أكبر من تقدير.

لكنَّ قلبه كان من الرحابة بحيث أحب.. كل إنسان: وذلك قوله: أحبكم إلينا ـ ما لم نركم ـ أحسنكم أسماء، فإذا رأيناكم، فأحبكم إلينا أحسنكم سمتًا، فإذا حدثناكم.. فأحبكم إلينا أحسنكم عملا، أما السرائر: فإلى الله تعالى.

قال جبران:

* تأملت فى الطبيعة ملياً. فوجدت فيها شيئا لا حد له ولا نهاية، شيئاً لا يشترى بالمال، شيئا لا تمحوه دموع الخريف، ولا يميته حزن الشتاء، شيئا لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزهات إيطاليا، شيئا يتجلد فيحيا فى الربيع، ويثمر فى الصيف.. وجدت فيها المحبة !

كل شيء حسن فى الحياة، حتى المال، لأنه يعلم الإنسان أمثولة. فالمال كالأرغن يسمع من لا يحسن الضرب عليه ألحاناً لا ترضيه، والمال كالحب.. يميت من يبخل به، ويحيى واهبه !

كان بدء المدينة عندما حفر الإنسان الأرض لأول مرة، وطرح فيها البذور. وكان الدين عندما عرف الإنسان عطف الشمس على البذور التى طرحها فى

الأرض، وكان بدء الفلسفة عندما أكل الإنسان من غلة الأرض حتى التخمة !

من يبيعنى فكراً جميلاً بقنطار من الذهب؟ ومن يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة؟ من يعطينى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى؟

إن ظمأ الروح أعذب من ارتواء المادة، وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد!

المسلم

بين طهارة الظاهر.. والباطن

عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ:

«الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن: حجة لك، أو عليك، كل الناس يغدو: فبائع نفسه: فمعتقها أو موبقها»[1].

تمهيـــــد:

كل الناس يغدو ويروح.. كلهم يتحرك من أجل لقمة العيش:

كل من فى الوجود يطلب صيدا　　　غير أن الشباك مختلفات

وغريب ما تراه فى مملكة الإنسان: كل الناس متشابهون فى مرأى العين.. لكنهم فى واقع الأمر مختلفون: حقيقتهم واحدة.. لكنهم متنوعون فى الجمال: كل عين.. ككل عين: فى وضعها. وتركيبها. وصفتها... وما عينٌ مثل عين فى: شكلها. ومعناها. وجمالها. تلك حكمة الخبير المبدع القدير... ولكن.. لا قيمة لهذا الاختلاف فى موازين الإيمان... ولكن الاختلاف الحقيقى فى موقف الإنسان من القرآن:

فمن الناس من اتخذه دستورا.. فباع نفسه لربه.. باعها مرة واحدة ـ فلا يبيعها لغيره بعد ذلك.. لأن الحر لا يبيع نفسه مرتين..

وهناك من باعوا أنفسهم للشيطان فخسروا الدنيا والآخرة.. وما يزال القرآن مُيَسراً للذكر.. لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.. وما تزال السنة المطهرة آخذة بعقولنا وقلوبنا.. لنظل من حكَمه فى بستان ظليل.. حافل بالثمر.. والزهر.. والذى يتمثل فى هذه التوجيهات الراشدة.. والتى يُبيِّنها هذا الحديث الشريف بيانا يكشف عن شمول هذا الدين القويم لكل ما يعين المسلم على الوصول إلى رضوان الله.

(١) رواه مسلم: باب فضل الوضوء جـ٣/ ٩٩.

منزلة الحديث

قال العلماء: هذا حديث عظيم... لاشتماله على قواعد إسلامية مهمة. أبْرزَت خطة الإسلام الشاملة.. والتى تخاطب أقطار النفس جميعا: مادية ومعنوية.. والتى كشفت عن سر نجاح الإسلام فى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور.. بعدما فشلت مذاهب وفلسفات أهملت فى كيان الإنسان جوانب مهمة لم تَطُلْها أيديها.. فكان ما كان من خذلان.

قيمة النظافة

وتأخذ النظافة وضعها اللائق فى طليعة قيم الإسلام الكبرى. وهل هناك أفق أسمى من جعل أجْر الطهارة يتضاعف ليكون نصف أجر الإيمان.. ذلك بأن أمر النظافة لم يُتْرك لمزاج الإنسان.. ولكنه صار أصلا فى نسيج العبادة. وإذا كان الإيمان يَجُبّ ما قبله من الخطايا.. فكذلك الوضوء: يمسح ما قبله من المعاصى!

تجاوب الإسلام
مع فطرة الإنسان

وإذا كان الإنسان بطبعه مدنيا.. فلن يعيش إلا فى جماعة.. ولكى يطيب عيشه فى جماعة لابد أن يكون مرشحا لذلك بما يعطف قلوب الناس إليه.. فيقبلون عليه.

وفى مقدمة ما يحقق ذلك: النظافة التى بها يكون التقارب.. والتعاون. والود. من أجل ذلك كانت أهمية النظافة التى تلبى حاجة الإنسان إلى الاجتماع. فالانتفاع.

لكن الحديث الشريف يقول: الطُّهور بالضم..

والمراد به: الرغبة فى الطهارة.. ثم ممارستها عمليا.. وإلا فإن توفر الطَّهور وهو الماء.. مع نضوب الرغبة فى النظافة لا يُغْنى عن الطهارة شيئا.. وإلا فلوملك الإنسان من المنظفات ما ملك.. ثم بقى وسخا.. فلن يكون مسلما حقا..

من ثمرات الوضوء

ولقد كان من دقة الإسلام أن سمى التطهر «وضوءا».. ليضيف إلى النظافة معنى الوضاءة.. والإشراق.. والحيوية.. فيبدو المتوضئ بين يديك.. وضيء الوجه.. وضاءة تعكس ما فى الأعماق من رضا.. يترقرق فى ناظريك.. على وجه إنسان انسجم باطنه مع ظاهره.. فبدا آملاً متفائلا.. تفاؤلا يُزرى بكل من لطَّخ وجهه بكل مستَوْرِدٍ من أدوات الزينة.. والتبرج.. ففسد قلبه.. وخلاجيبه.. وبل وأفسد بَشرته.. بثوب زور.. قد يستر عيبا بسيطا.. ليخلّف من بعده بَشرة جافة.. وقلبا هلوعا!! خائفا وجلا من تجاعيد المشيب التى سوف تهجم عليه يوما ثم لا يجدى معها زخرف ولا مساحيق!

من نظافة الظاهر
إلى نظافة الباطن

إذن.. فالوضوء يعنى: البشاشة... والبشاشة كما يقولون: مصيدة المودة..

وإذا كانت الأيدى المتوضئة هى القادرة على قيادة السفين بنجاح.. فإن ما يشبه الابتسامة على وجه المتوضئ لتَجْبرُ خصمك على أن يحب. وهو يكره.. وأن يبتسم.. وهو يتألم !

ولكن تلك البشاشة سوف تكون سرابا إذا لم تغترف من معين الذكر معناها! وهنا يركز الحديث الشريف على أهمية الذكر ببيان جزالة ثوابه:

«والحمد لله تملأ الميزان. وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض».

ربيع المؤمن

وإذا كان ربيع العشاق زهرا وظلا وثمرا.. فإن ربيع المؤمن قيام.. وصيام.. وذكر.. ومن هنا قالوا: الشتاء ربيع المؤمن: يطول ليله: فيقومُه.. ويقصر نهاره.. فيصومه.. فهو الغنيمة الباردة التى تُسْلم نفسها إليه.. بلا مشقة ولا نصب. وحتى إذا لم يحسَّ بلذة الذكر فى قلبه يوما.. فيكفيه أن الله تعالى أنعم عليه بجارحة ترطب نفسها بذكره..

ويكفيه أيضا أنه بالذكر فى حصن حصين من الشيطان الرجيم الذى يعَجز عن تفريق حِلَق الذكر . . فيعمد إلى الذاهلين ليجعلهم بالغفلة أشتاتا .

والحديث الشريف يزود المسلم بخير زاد . . ليوم الميعاد . . بقدر ما هو فرارٌ به من قبضة الدنيا التى تغريه بمناعمها : ذلك بأن شقاء الإنسان راجع إلى وقوعه بين : عوامل الغرور بالمال والقوة . . وعومل الفقر والضعف . .

وشأنه أن يطلب المزيد دائما . . ولا يملأ جوفه إلا التراب . . فإذا لم يحقق أمله سقط على منحدر الهزيمة ثم كان اليأس القاتل . . وسر ذلك كما يقول المربون : فقدان توازن الشخصية . . والذى يسلمه إلى التناقض : بين شرك العقيدة . . بعبادة غير الله تعالى . ثم الشرك الاجتماعى برجاء المنفعة من غيره . . فيفقد إشراق الروح . . وطمأنينة القلب . . وإذا هو فى قبضة الأعاصير قشة حائرة .

سفينة النجاة

ويجىء الذكر سفينة النجاة لمن أراد النجاة : فالحمد لله تملأ الميزان . . فأجرها من العظم بحيث يملأ الميزان . . لأنه ثناء على الله تعالى بما هو أهله : فالحمد كله لله تعالى . . كل أفراد الحمد . . فلا أحد يستحق الحمد سواه . . حتى على المكروه لا يُحْمَد عليه سواه . . والتسبيح المقترن بالحمد : لو قدر ثوابهما جسما لملأ ما بين السماء والأرض . . لماذا؟ لا شتما لها على :

أ - التنزيه : عن الشريك والنظير . وكلٍّ نقص .

ب - والتفويض .

جـ - وإعلان الافتقار إليه سبحانه .

د - وأن له الكمال المطلق .

وكما أنك بالسباحة فى النهر . . تعلو الماء . . وتتجاوزه إلى البر آمنا . فكذلك أنت بالتسبيح . . تعلو فوق جواذب الأرض . . وتنجح فى تجاوزها منتصرا . . إلى جانب ما يحققه الذكر من مركز اجتماعى مرموق : فأنت بالذكر تقبل على ربك تعالى بقلبك . . وعندئذ يقبل الله تعالى بقلوب الناس عليك .

مضاعفات النسيان

يقول الحق سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1].

وأى نعمة أجل من أن تذكر ربك سبحانه تعبُّدا فيذكرك تحببا وتلطفا؟ فإذا نسيت فقد جنيت على نفسك.. وما أشد الخسارة عندئذ: وسوف يصير الأمر على ما قال المفسرون:

[إذا نسى الإنسان ربه.. أنساه نفسه؟

وما معنى أن ينسى الإنسان نفسه؟

ينسى نعيم الجنة فلا يعمل له.. ينسى موقعه من النار.. فلا يخافها.. ثم يستمرىء العصيان.. وينسى حاجته بعد الموت لدعاء ولده فلا يُحسن تربيته.. وينسى البركة فى المال الصالح.. فلا يبالى من أين أخذه.. وفيم أنفقه..

ولن يُفيق المسلم من غفلته.. ويصحو من غفوته إلا بالذكر.. ولن ينشط لسانه ويلهج قلبه إلا بمجالسة الصالحين.. وتَذَكُّر شدة عذاب الله تعالى.. ثم مجالسة الذاكرين الشاكرين.. وفى هذه البيئة الطيبة ينبت الكلم الطيب. والعمل الصالح]

المؤمن بين نورين

كان من رحمة الله تعالى أن ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[2].

وكان من رحمته أن جعل الصبر ضياء. والصلاة نورا. لِتعمر هذه السنين بما يستطاب من جزيل الثواب..

وإذ يقول علماء الطبيعة إن القمر يستمد نوره من الشمس التى هى أكبر منه كشفا.. فكانت ضياء ـ متوهجا.. وكان هو نورا هادئا.. فإن علماء الشريعة يقولون أيضا: إن الصبر أساس الانطلاق.. وقاعدة الطيران.. ولذلك جعله الله تعالى ضياء.. ولكن لماذا قدمت الصلاة عليه فى الذكر؟ ربما جاز لنا أن نقول:

---

(١) البقرة: ١٥٢.　　(٢) يونس: ٥.

إنها فريضة لا يمكن التفريط فيها. . ولعل ملحدا أن يقول: خذوا منى الخلق الطيب. . ودعونى من الصلاة. . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا. . فلابد من أداء الفريضة التى يجىء الخلق الكريم ثمرة لها. . وكما أن الصدقة تُدرِّب يد الواجد على البذل. . بينما نفسُه تثبت ذلك الكرم وتصفق له فى نفس اللحظة. . فإن الصبر. . والصلاة كليهما تزكى إحداهما الأخرى. . وذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[1].

المعركة اليومية

وحاجة المسلم إلى الصبر والصلاة يومية وملحة: ذلك بأنه كإنسان يواجه عدوين خطرين:

١ـ النفس. . ولها صفة السحر والجذب. والشيطان وله صفة العلم والمكر ولا بد كما يقول المربون من الصبر أوّلا:

[الصبر تهيئةٌ. . والصلاة إقبال

الصبر صفة. . والصلاة سعى.

الصبر غذاء. . والصلاة هضم.

الصبر رضا. . والصلاة تسليم.

الصبر طَرْق للباب. . والصلاة فتح للباب].

إن الصبر هو المجهود البشرى. والطاقة الكهربية. . المحركة. . ثم هو من أعمال القلوب. . ولكى تبدأ معركة الاصلاح بداية مضمونة النتائج. فلابد من الصبر سبيلا إلى تحقيق المأمول.

انتصار على النفس

والنفس ـ كما قرر المجربون ـ من طبعها الغرور. . والطغيان.

والمغرور والطاغية على سواء: يشق عليهما طلب المعونة من الغير. وهكذا تقول قوانين النفس.

(١) البقرة: ٤٥.

إن واجد الكفاءة فى نفسه لا يستعين بغيره.. والشاعر بالقوة لا يمد يده إلى سواه..

والمستغنى عن الشيء لا يَجدّ فى تلمس الأسباب إليه.. وكان من وسائل الانتصار على النفس ما حَرَّضَ الله تعالى عليه من التسلح بالصبر سبيلا إلى الوصول.

من مصلحتك الشخصية

ومن مصلحتك الشخصية أن يجدك الناس صابرا: وإلا.. فسواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص!

وعليك أن تسأل نفسك: ماذا لو جزعت؟

إن الجزع عند المصيبة.. مصيبة أخرى.. بل إن من مضاعفات الجزع: أن المصيبة تتضاعف.. وتتفاقم.تُشمت بك عدوك. ثم تُحزن صديقك وتسر شيطانك.. وفوق ذلك كله.. تُغضب ربك..

وليت شعرى ماذا يبقى من إيمان المسلم.. بل من عقله.. إذا هو أرضى شيطانه.. وأسخط ربه.. فلم يبق إلا التسليم والرضا.. ويحملك على ذلك:

١ـ إحساسك أنها من الله الحكيم الذى لا يفعلها بك شماتة. بل حكمة وتربية.

٢ـ أن تحمد الله الذى أعد لك بيت الحمد فى الآخرة.. وهو خيرٌ ألف مرة من سرورك لو بقى لك ما أحزنك فَوْته.

من المؤمنين رجال

وأمامك على الطريق رجال صبروا . . بل صابروا . . ومنهم ذلك الفتى الذى طال وقوفه فى الشمس لحاجة له . . فلما قيل له: لقد طال وقوفك فى الشمس. قال: لقد طال وقوفى فى الشمس . . ليطول وقوفى بعدُ فى الظل!!

خواطر فى الصبر

قال الشيخ[1] للمرأة الباكية الثكلى:

[هل أنت أول من فرّق بينه وبين حبيبه؟

وإذا كنت قد فقدت عزيزك فهل تفقدين إيمانك أيضا؟ لو ذهب الفقيد إلى عمه أو خاله فى بلد بعيد. . كنت مطمئنة عليه. . فكيف لا تطمئنين عليه وهو فى ذمة من هو أرحم به منك. . ومن عمه وخاله. . وهو الله تعالى؟

ثم. . إن الجزع إنما هو من نصيب الملحد المحدود بالدنيا. . أما إيمانك. . وهو النعمة الباقية فيقول لك: غدا. . وفى الجنة. . ألقى الأحبة!]

ثم إن البلاء قدر المؤمن: يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

فاحتمال البلاء مؤكد: باللام. . والنون. . ولكنه البلاء المحفوف برحمته سبحانه وتعالى. . لأنه ابتلاء: بشىء من الخوف. . والجوع. . بجزء يسير. . تبصرة وذكرى. . وفى الوقت الذى يبدو الملحدون فى أبهة السلطان. . ورفاهية النعيم. . فإن لنا من جنة الإيمان فى صدورنا ما يزرى بهذا السلطان. . وهذا النعيم .

ولقد ارتفع المسلمون بهذا الإيمان إلى سماء رفضوا منها الدنيا. . المقبلة عليهم. . حتى قال أحدهم: [والله. . لأن يرزقنى الله تعالى ولدا. . فينبته نباتا حسنا. حتى إذا بلغ الشباب وصار على أوفى ما تكون الفتوة. . ثم أخذه الله تعالى. . أحب إلى من أن تكون لى الدنيا].

---

(١) الشيخ على الطنطاوى.

وإنها لهمة ترمى إلى بعيد.. تذكرنا بأفق الأنصار الأعلى.. والذى حملهم على قولهم لرسول الله ﷺ: خذ من أموالنا ما شئت.. ودع منها ما شئت.. وما اخذته أحب إلينا مما تركت! وهكذا الصبر فى ظل الإيمان. وإذا استمد الصبر قوته من دوحة الإيمان رأيت عجبا:

كان مطرّف بن عبد الله [التابعى] صبورا: مات ولده.. فجاء الناس يعزونه..

وكانت المفاجأة لما خرج عليهم وقد رَجَّل شعره. وزينه. ولبس حلته.. ولما قال له الناس عاتبين: ما نرضى منك هذا وقد مات ولدك.. قال لهم: أتأمروننى أن أستكين للمصيبة!! فو الله لو أن الدنيا وما فيها لى. فأخذها الله منى. ووعدنى عليها شربة ماء غدا.. ما رأيتها لتلك الشربة أهلا.

فكيف بما وعد الله به الصابرين من الصلوات والهدى. والرحمة حين قال: **﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة..﴾**.

فانظر كيف اقتحم المؤمنون العقبة بنفس راضية. بعدما راضوها رياضة صارت بها رهن إشارتهم.. حتى قال قائلهم: لقد رضت نفسى رياضة.. لو حملتها على ترك الماء لتركته!

وأين هذا من موقف الجازع. حين تطير المصيبة صوابه.. ومنهم ابن الرومى الذى أنشد لما مات ولده:

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد؟!

وفى الوقت الذى يرضى فيه المسلم بقضاء ربه وقدره.. فينال بالرضا ثوابه.. ترى المصيبة عند ابن الرومى وأمثاله مصيبتين:

١ـ موت العزيز.

٢ـ ثم نقص الدين.

من دواعى الصبر

هناك أسباب تحمل المصاب على تحمل الأوصاب:

١ـ الإيمان بقضاء الله وقدره.

٢ـ دور الإخوان فى تخفيف الأحزان.

ومن صور العزاء التى تسوق إلى المحزون برد السلوى: قول أحدهم:

[إن فى الله عزاء من كل مصيبة.. وخلفا من كل هالك.. ودركا من كل فائت.. فبالله ثقوا.. وله فارجعوا.. فإن المصاب من حرم الثواب]

والحكمة فى هذا العزاء بيان أن هناك مصيبة أكبر من البلاء الواقع.. وهى الجزع المانع من الثواب.. فإذا صبر المحزون.. فقد استبقى حظه من الثواب الذى لو بقى العزيز حيًا لما أدركه..

ومن ذلك ما روى أنه: عزى أعرابى «عبد الله بن عباس فى والده العباس رضى الله عنهما فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما ـ صبر الرعية عند صبر الراسى.

خير من العباس أجرك بعده ـ والله خير منك للعباس.

فقال عبد الله رضى الله عنه: ما عزانى أحد بمثل ما عزانى هذا الرجل!

٣ـ مقاومة العاطفة:

وواجب الفرد نفسه أن يروض نفسه على الصبر: والصبر فى أصله مقاومة العاطفة التى تشتد أحيانا كأنها العاصفة! ولكن العقلاء لها بالمرصاد.

قال سعيد بن العاص:

[ماشا تمت رجلا مذ كنت رجلا: لأنى لا أشاتم إلا أحد رجلين: إما كريم: فأنا أحق أن أجله. وإما لئيم: فأنا أو لى أن أرفع نفسى عنه]

ولك أن تتصور كيف أقنع هذا الرجل نفسه بأهمية الصبر.. وما يترتب على ذلك من راحة باله.. وصلاح حاله.. وحسم القضية بينه وبين الناس.. ابتداء فأراح واستراح..

ومما تعيه الذاكرة: أن أم الخليفة «المعتز» ظلت تلح عليه ليأخذ بثأر أبيه من الأتراك. وفى سبيل ذلك.. كانت تُبرز له كل صباح قميص أبيه مخضبا بدمه.

ثم تعزز ذلك.. بالبكاء.. والشكوى..

فقال لها ولدها المعتز: ارفعى القميص يا أماه.. وإلا صار القميص.. قميصين!! فما عادت لعادتها بعد!

ونجحت خطة المعتز.. فى وضع حد لمسلسل الدم.. وهو درس لبعض الأمهات اليوم.. اللائى يوسوسن لأولادهن ليأخذوا بالثأر.. ثم تبدأ الحرب.. التى نعرف متى بدأت.. لكننا لا نعرف متى تنتهى.. وتتحمل الأم الجاهلة الغافلة وزر نفوس تسقط.. فى معركة خاسرة.

٤- إدراك ثواب الصبر:

ولنا فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسوة حسنه: لقد صبر.. فجنى بالصبر أطيب الثمار.. على ما أشار القرآن الكريم:

١- فديناه بذبح عظيم.

٢- وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين.

٣- ومن وراء إسحق يعقوب.

٥- إدراك طبيعة المصائب:

أ - إنها مكتوبة عليك.. فلا مفر منها ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[1].

ب - ثم إنها من نفسك ﴿.. فبما كسبت أيديكم..﴾

جـ - ثم هى تربية لجهازك العصبى الذى يصبح من بعد صالحا للتكيف مع أحداث الحياة: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2].

أما بعد:

فكما قال المربون: للعبد رب هو ملاقيه.. وبيت هو ساكنه: فعليه أن يسترضى ربه قبل لقائه.. بالصبر على قضائه. وأن يعمر بيته قبل الانتقال إليه.. بالثناء عليه.. وليحذر من غلبة الطبع.. وليكن ولاؤه لحكم الشرع:

إن طائر الطبع يرى الحَبَّ.. ولكن عين العقل ترى الشَّرَك!!

---

(١) الحديد: ٢٢. (٢) الحديد: ٢٣.

أهمية الصلاة

وعندما يخوض المسلم معركة الصبر: مع نفسه الأمارة وشيطانه الرجيم.. فإن الصلاة تشد من أزره ليأخذ سمته فى مراقى الصبر صاعدا: فإذا كانت مراتب الصبر هى: العفو.. فلا عقاب.. ثم الصفح.. فلا لوم.. ثم الغفران.. فلا تشهير..

إذا كان الأمر كذلك.. فإن الصلاة تسوقه سوقا ليحلّق إلى أعلى.. صاعدة به إلى أفق الشكر على نعمة التوفيق: شكره تعالى أنْ جمّله بالعفو.. والصفح.. والغفران. بينما غيره يتمرغ فى حمأة البذاء والعصيان!

من آثار الصلاة

ولكن الصلاة لن تكون كذلك إلا إذا «أقامها» المسلم أقامها على قاعدة صلبة من إخلاصه لربه..

أقامها.. يعنى استراح بها.. ولم يسترح منها!! أجل.. استراح بها.. كما يستروح المرء النور بعد الظلام:

إنها نور كاشف ترى به الحق حقا. والباطل باطلا.. ثم هى واعظ مقيم فى كيانك: تَهْدِيكَ إلى اعتناق ذلك الحق بعد أن رأيته بقدر ما تحميك من المنكر بعد أن عرفته.. وكلما ارتقيت بها فى مراقى العلاج انشرح صدرك.. وأشرق قلبك بذكره تعالى.. فَصغرتْ فى عينك الدنيا. إلى جانب ما تمنحك الصلاة من متعة حلال وينعكس ذلك كله على وجهك بهاء وضياء.. فيحبُّك كل من رآك.. وبعد ذلك كله.. فجزاؤك فى الجنة على قدر ما قدمت فى دنياك.

دور الصلاة الاجتماعى

ولا يقتصر دور الصلاة على تطهير الباطن.. بل إن الصلاة بإقامتها تكون قاعدة الانطلاق لإسعاد الآخرين من بنى الإنسان.. بالصدقة..

فإذا صلى المسلم.. صلى فقط.. فَنَقَرَها نقر الديك.. فلن تتجاوز رَأسَهُ إلى

أعلى.. ولن تعطف قلبه نحو الآخرين.. بعد أن فقدت الطاقة الدافعة..

ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾.

إن ترك الصلاة.. أو أداءها فاقدةً شروطها.. لا يجعل لها أثرا فى دنيا الناس.. ويبقى القلب فى غيابها على جموده فلا يجود.. حتى بالماعون يطلبه الجار عارية مستردة؟!

وبعد: فإذا كان المسلم يكدح إلى جنة ربه كدحا.. فلا أنيس له فى طريقه إلا الصبر.. ولا طاقة أقوى من الصلاة.. وإذا كانت الصلاة كبيرة ثقيلة على المنافقين.. فهى على المؤمنين حمل خفيف المئونة.. بل أمل يرجونه وعمل يستعذبُونه.. من أجل ذلك.. لم يكن الله مع المنافقين.. ولكنه تعالى مع المؤمنين.. حين قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وأمتنا المسلمة مطالبة بالاستعانة على أمورها.. بالصبر والصلاة.. بالصبر.. تكابِر به أعداءها.. وتكابد به شؤون حياتها.. ثم بالصلاة وما فيها من نظام.. ووحدة.. وأخوة: ولو أنها فعلت. لتجاوزت المحنة الطارئة.. لتعود كما كانت أمة واحدة: وهذا واحد من دروس تاريخنا:

لقد سقطت بغداد يوما فى أيدى التتار.. ورغم أن التتار كانوا كالتيار.. كالنار.. ورغم تحالفهم مع الصليبيين.. لكن الأمراء والعلماء كانوا على قلب رجل واحد.. فهزموا عدوا.. لم يخطر على باله أن سيُهزَم يوما.

ولما سقطت الأندلس.. كانت الفرقة ضاربةً أطنابها بين أمة صارت مِزقا وأشلاء.. وكان لابد أن تتحقق سنة الله تعالى فى المتفرقين.. فخرج الإسلام من الأندلس.. ولم يعد.. لكنكم إن عدتم أيها المسلمون إلى خلائق الصبر.. والنظام والأخوة. عاد الإسلام.. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

---

(١) البقرة: ١٥٣.

ليلة

فى حياة صبى مسلم

روى مُسْلم بسنده عن كُرَيب عن ابن عباس قال:

بِتّ ليلة عند خالتى ميمونة. فقام النبى ﷺ من الليل. فأتى حاجته. ثم غسل وجهه ويديه. ثم نام ثم قام فأتى القربة. فأطلق شناقها[1]! ثم توضأ وضوء بين الوضوءين. ولم يكثر وقد أبلغ. ثم قام فصلى. فقمت فتمطيت كراهية أن يرى أنى كنت أنتبه له.

فتوضأت. فقام فصلى. فقمت عن يساره. فأخذ بيدى فأدارنى عن يمينه فتتامّت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة. ثم اضطجع. فنام حتى نفخ.

وكان إذا نام نفخ. فأتاه بلال فآذنه بالصلاة فقام فصلى ولم يتوضأ.. الحديث.

[وكان من دعائه:

«اللهم اجعل فى قلبى نورا. وفى بصرى نورا. وفى سمعى نورا. وعن يمينى نورا. وعن يسارى نورا. وفوقى نورا. وتحتى نورا. وأمامى نورا. وخلفى نورا. وعظّم لى نورا»[2].

تمهيـــــد:

عندما استقرت الكرة فى المرمى مسجلة هدف الفوز.. ضجت الساحة الكبرى بتصفيقٍ أوشك أن يخرق طبلة الأذن!

وقال صاحبى غضبان أسفا:

أرأيت إلى شباب هذا الزمان.. الباذلين طاقاتهم فى غير ميدان؟

قلت له: هون عليك.. وجفف دمعك الغالى..

---

(١) الشّناق: خيط يشد به فم القربة.

(٢) مسلم ج٦/ ٤٤ باب صلاة النبى ﷺ ودعائه بالليل.

فالحماس فى أمور الدنيا.. كالحماس فى أمور الدين: كلاهما ظاهرة صحية.. وليس الشأن ألا نتحمس.. ولكن الشأن: كيف نضبط الحماس.. هذا الشلال الهادر حتى لا يذهب بالطاقة بدداً.. وتلك هى القضية؟

قال صاحبى.. ما هو الحل إذن؟

قلت: أن نفتِّش لهؤلاء الشباب عن مواقف من تاريخنا فى أعصاره الزاهرة.. ونحن واجدون فيه مواقف مشرِّفة.. نضعها بين أيديهم.. ليقيسوا أنفسهم بمقياسها.. وليتساءلوا بينهم:

ما قيمة ليلة ساهرة لاهية فى عمرنا؟ هل أضافت إلينا جديدا؟ وأين نحن من صبّى كابن عباس رضى الله عنه مثلا.. فى ليلة مباركة قضاها.. نائبا عن أمته فى طلب العلم.. ثم فى تعليمه الناس؟ من بعد؟

إن الموعظة المحددة قد لا تجدى أمام هذا التيار الجارف..

وإنما الأجدى: أن نواجه شبابنا بإخْوَةٍ لهم من قبل:

أخذوا حظهم من اللعب المباح.. ثم سهروا يطلبون العلم حتى الصباح.. ولعل شبابنا على ضوء هذا الموقف أن يفيق.. ثم يضع قدمه على ذات الطريق.. قبل أن يضيع من قدمه الطريق!

قضية الصبى المسلم

ولكن ما هى قضية الصبى المسلم فى هذا الحديث الشريف؟

قضيته هى: أنه أخذ فريضة الصلاة عن النبى ﷺ علما.. وعملا.. على مدى النهار كله..

ولكن يبقى من حياته ﷺ جانب مهم هو: كيف يقوم الليل.. وما دُعاؤه.. وكيفيةُ صلاته؟

المرشح الوحيد

وابن عباس رضى الله عنه فى طليعة المرشحين لأداء هذه المهمة... إن لم يكن وَارِدَهم: فهو صبى.. صغيُر السن.. صبى ذكى.. له لسان سؤول. وقلب

عقول. ثم هو ابن عم رسول الله ﷺ..

وأهم من هذا أن ربة البيت خالته. أى أمه.. وإذن فهو المؤهل لأداء مهمة لم تك تصلح إلا به! ومن دقة تعبيره أن يقول رضى الله عنه: «بتّ ليلة عند خالتى ميمونة».

ومعروف أن البيت بيت رسول الله ﷺ.. وليس بيت خالته.. ولكنه يُبرز المسّوغ الأكبر لصلاحيته وهو أنه محرم لها.. فلا حرج أن يدخل.. وأن يبيت..

أما قرابته للزوج.. فلا تنهض وحدها شافعا.

وبدأ الصبى المسلم
يخطط لتنفيذ الفكرة

لم تكن الفكرة سرية.. ولكنها كانت تحت إشراف أبيه.. الذى زوده بخبرته.. فلم يكن لأبيه أن يسمح له بالبيات إلا ليلة كهذه مباركة.. وكان هو شخصيا المرشح لهذه المهمة.

فإذا كان مهما أن ينفذ الفكرة.. فأهم منه أن تكون وسيلة التنفيذ مشروعه:

١ـ كانت خالته فى هذه الليلة حائضا ـ جاء فى شرح النووى: قال القاضى: جاء فى رواية: [قال ابن عباس: بت عند خالتى فى ليلة كانت فيها حائضا.

قال: وهذه الكلمة وإن لم تصح طريقا. فهى حسنة المعنى جدا:

إذ لم يكن ابن عباس يطلب المبيت فى ليلة للنبى ﷺ فيها حاجة إلى أهله. ولا يرسله أبوه إلا إذا علم عدم حاجته إلى أهله. لأنه معلوم: أنه لا يفعل حاجته مع حضرة ابن عباس معهما فى الوسادة مع أنه كان مراقِباً لأفعال النبى ﷺ ومع أنه لم ينم أو نام قليلا جدا][(١)].

٢ـ ثم إنه يعلم من طبيعته كصبى غلبه النوم.. فأخذ الاحتياط الشديد. حين جعل من خالته حارسا عليه.. وذلك قوله فى رواية أخرى: [.. فقلت لها إذا قام رسول الله ﷺ فأيقظينى].

---

(١) نفس المرجع ص٤٦.

ولكن ما هى عوامل نجاح الخطة ؟

لقد توفرت للفكرة أسباب النجاح متمثلة فى:

١ـ فتى راغب فى الخير. ويضحى فى سبيله بلذة الكرى.. ومؤانسة الرفاق.

٢ـ أشواق الصبى هنا ورغائبه تنطلق تحت إشراف الأسرة: فلم يكن الوالد ليأذن لولده الناشئ أن ينام خارج البيت.. وإذا كان فلغاية شريفة.. وفى مكان أمين.

ثم هذه خالته تعينه على أمر الله.. والمفروض أن الخالة أشد غيرة من أختها.. لا من أخيها.. لأنها قرينتها.. ومنافستُها فى الخير.. ولكن الإيمان هنا يحرس الخواطر.. ويسدد الفطرة.. لتمضى سويَّةً راشدة.

٣ـ والدولة فى شخص الرسول ﷺ.. تستثمر طاقات شبابها.. وتفسح الطريق لهذه البراعم الغضة حتى تتفتح وتؤتى أكلها.

٤ـ وكما جاء فى روايات أخرى: بدا الذوق الإسلامى قيمةً عليا حتى على مستوى الطفولة:

أ ـ فقد نام ابن عباس [فى عَرْض الوسادة. واضطجع رسول الله ﷺ وأهله فى طولها] ولم يكن معهما فى خط موازٍ.

ب ـ ثم إن ابن عباس تمطى متظاهرا بالنوم حتى لا يُحرج الرسول ﷺ.

وهكذا.. فرض الذوق الإسلامى نفسه.. هذا الذوق الذى لا ينبغى أن نفرِّط فيه مهما كانت غايتنا شريفة.

من الحكم إلى الحكمة

ولقد كان ابن عباس.. الصبى.. دقيق الملاحظة.. حتى وهو يغالب النوم فى سجوة الليل: لقد سجل كل ما شاهد.. فى هذا «التقرير» الذى صار حديثا حسنا لمن وعى من أمة الإسلام على مدار الزمان:

١ـ فقد استيقظ ﷺ كما تقول الرواية عندما [انتصف الليل أو قبله بقليل. أو بعده بقليل].

٢ـ ثم كان مجموع ما صلاه ﷺ [من الليل ثلاث عشرة ركعة].

٣ـ ولما آذنه بلال بالصلاة [قام فصلى ولم يتوضأ].. لأن نومه ﷺ مضطجعا لا ينقض وضوءه [لأن عينيه تنامان. ولا ينام قلبه. فلو خرج حدث لأحس به. بخلاف غيره من الناس].

٤ـ المأموم الواحد يقف عن يمين الإمام.. ولو وقف يسارا تحوّل.. وإلا حوله الإمام.

٥ـ الحركة اليسيرة لا تبطل الصلاة.

٦ـ صلاة الصبى صحيحة.

٧ـ والجماعة فى غير المكتوبات صحيحة.

٨ـ يجوز نوم الرجل مع أهله. ومع محرم مميِّز].

من مظاهر الحكمة

وعندما استيقظ ﷺ. لم يدخل فى الصلاة مباشرة.. ولكنه [جعل يمسح النوم ثم [غسل وجهه ويديه، ثم نام].. حتى يُنشِّط الخلايا.. ويسترد الحيوية التى غشاها النعاس.. حتى إذا دخل الصلاة دخلها بكل كيانه.. فإذا كان مُهِماً أن تصلى فأهم منه أن تكون عاقلا لصلاتك. مستغرقا فيها.

وحتى تؤدَّى الصلاة على أوفى شروطها وأركانها.. لا يكتفى ﷺ بذلك.. بل إنه ليغفو بعد ذلك إغفاءة يسيرة.. لعله بذلك يلبى حاجة الجسم إلى بقية من رغبته فى النوم.. حتى إذا وافى ميقات الصلاة.. كان الوعى كله.. والشوق كله للمناجاة.. بعد أن أخذ البدن حظه من الراحة.

وطبق هذه السنة فى إعداد النفس للإقبال على الله تعالى.. نراه ﷺ وقد علم من سطوة النوم الغلاب على صبى صغير سَهِر الليل كله.. نراه يَفْرُك أذن ابن عباس ليفيق.. وليعينه على إنجاز مهمته. بطرد النعاس ليتفرغ للصلاة. ثم لمهمة البلاغ بعد ذلك.

ومازلت أذكر ذلك الفتى الذى كنت أحاوره.. فلما سمع الأذان قفز كالغزال

عابرا عتبة المسجد كالمذعور.. ثم دخل فى الصلاة.

ولقد دخلها فعلا.. ولكن بقلب مشغول.. لم يفرّغه لهذه اللحظات المباركة.. والمفروض أن يستأذن من شيخه أولا فى الانصراف.. ثم ليمشى الهوينا.. ساكنا.. هادئا.. فى محاولة لتهيئة الجوارح لتكون على مستوى الفريضة العظمى..

ولكنها علةُ بعض شبابنا الحراص على الالتزام بالحكم.. وكان عليهم. وعلى خط مواز - أن يحرصوا على الحكمة !

هذه الحكمة التي لفت ﷺ الأنظار إليها.. عندما وجد حبلا مشدودا ليعين زينب على العبادة فقال: «**ليصل أحدكم نشاطه.. فإذا فتر فليرقد..**»[1].

نعم.. فليرقد وليحتسب قومته.. كما يحتسب نومته.. ما دامت النومة **تَزَوُّداً** بالطاقة.. **تمكِّنك** من الطيران.. **فى أجواء الإيمان**.

أما بعد: فإذا كان من حق الصبى.. عبد الله بن عباس رضى الله عنه أن يلعب.. فإن من حق مجتمعه عليه أن يدخر له من وقته وطاقته وفاء وولاء.

وقد اتسع عمره المبارك لهذه اللحظات المباركات والتى قدم فيها لأمته ليلة خيرا من ألف ليلة!

ثم.. لم تكن هذه الصحوة الإسلامية على مستوى الأحرار فحسب.. بل إنها شملت حتى العبيد:

فهذا كُريب رضى الله عنه مولاه.. مملوكه.. خادمه.. يقف معه فى نفس الخندق مجاهدا.. لقد روى عنه ذلك الحديث الشريف.. وإذن فلم تكن مهمته فقط فى المطبخ بعد الطعام.. ولا فى ردهات الدار يكنس الدار.. وإنما كان حلقة فى سلسلة ذهبية تستوعب السنة.. ثم تتحمل مسئولية البلاغ.. تمكينا لقيم الإسلام فى قلوب الناس.. تلك القيم التى تبحث عنها اليوم.. فلا تجدها..

نُسِيَت كلها فى زمن كل شيء فيه ينسى بعد حين!

---

(١) متفق عليه.

المحرومون من الجنة

قال ﷺ « **أربعة حق على الله ألا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر. وآكل الربا. وآكل مال اليتيم. والعاق لوالديه**»[1].

وفي رواية: «**والديوث الذى يقر على أهله الخبث**» رواه أحمد.

تمهيــــــد:

كأنما سُمِّى الخير خيرا.. ليقع اختيار المرء عليه!

فلفظ الخير تذكير بعمل الخير: يَحُضُّ عليه. ويسوق إليه. فإذا اتخذ المسلم سبيله إلى الخير.. بإيحاء الكلمة المعبرة.. فقد تعترضه عقبات تحول دون الوصول..

وعندئذ فلن يصل إلا أن تداركه رحمة من ربه. يقول بعض العلماء:

[إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى. عَرَضت له الخوادع والقواطع. وهى لا تنقطع أبدا. حتى يَلْقَى العبد ربه... وليست العبرة بحصولها. ولكن العبرة بالوقوف معها.. فمن وقف معها انقطع عن المقصود... ومن لم يقف معها. وسار ناظرا إلى مراد الله منه. وما يحبه منه: فكان عبده الموقوف على محابِّه ومراضيه.. لا يختار لنفسه غير ما يختار الله له: سواء تعب أم استراح.. تنعم أو تألم.. أخرَجتْه إلى الناس. أم عزلته عنهم.. لأنه مع سيده وأوامره.. يُنفِّذها بحسب الإمكان.. ونفسه عنده أهون عليه من أن يقدِّم مرضاتها ولذاتها على مرضاة سيده وأمره.

فهذا هو العبد الذى قد وصل. ولم يقطعه عن ربه شيء أبدا][2].

مقصود الحديث:

والحديث الشريف: إنذار مدمدم.. ووقفة حازمة فى وجه مجموعة من

---

(١) جاء فى ضعيف الجامع الصغير للألبانى١/٢٤٨ رقم٤٤٨ـ ضعيف جدا أخرجه الحاكم فى المستدرك بلفظ «أربعة»وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ولم يخرجاه وقد اتفقا على خثيم.

(٢) الشيخ ماهر إسماعيل.

العصاة انقطعت بهم السبل. وتفرقت بهم الأسباب.. وتاهوا فى الأرض حيارى.. بعدما ضلوا عن سواء السبيل.. وإنهم ليبددون طاقاتهم سعيا وراء وهم كبير:

فربما ظن ذلك العاصى يوما أنه يحقق بالمعصية مغنما قريبا.. أو متعة سريعة.. بنسيانه المغنم الحقيقى.. والمتعة الدائمة هناك فى جنات النعيم.

ومن أساليب الدعوة: مواجهة ذلك العاصى بالحقيقة المؤلمة. والخسارة الفادحة المتوقعة:

وهذا ما فعله ﷺ عندما هزَّ وجدان العصاة هنا.. بأن ما يحسون به من متعة عابرة سوف يَحرْمهم من نعيم الأبد.. من جنة: أكُلُها دائم وظلها.. فلعل العاصى من خلال عملية مراجعة ربحه وخسارته.. لعله أن يغيِّر وجهته.. مواصلا رحلته عبر الطريق المستقيم.. إيثاراً للباقى.. على الفانى.

نعمة الإنذار!

والإنذار النبوى هنا نعمة عظمى.. لأنه إمساك بالعاصى.. الذى تنحدر به المعصية من قمة الفضيلة إلى سفوح الرذيلة.. أعنى إلى الهلاك: إن للمعصية ظلمة فى القلب.. تشبه أن تكون بقعة.. أو رقعة فى الثوب الأبيض.. تتسع مع الأيام.

وإنها لَتَعْنى: فقد المناعة.. كُلما هزم العاصى فى موقع.. وقبل أن يسقط العاصى فى بؤرة اليأس.. يُعينه ﷺ ليعود.. مستجمعا بالتوبة النصوح قواه.. ثم لتشهد العودةُ المظفرة بأن جنود المقاومة فى كيانه ما تزال قادرة على الصمود.. لم يسقط منها السلاح.. لقد كانت سكرة.. ثم جاءت الفكرة! الفكرة التى يستأنف بها حياة جديدة: يكره فيها الذنب.. كما أحبه... ويستغفر منه.. كلما تذكره.

سر التَّخْصيص

وإذا كان للرسول ﷺ وقفتُه الحكيمة الحازمة مع كل العصاة.. فلماذا التركيز هنا على هذه الفئات بالذات؟

ونجيب أولا بصفة عامة:

إن الرسول ﷺ يحمى الأمة من الحرام.. ليحميها بنفس القوة من الخراب..

ذلك بأن هذه الرذائل.. ظلم:

ظلم للنفس.. وظلم للمجتمع.. والله تعالى يقول: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[1].

من آثار هذه الرذائل

ونقول بشيء من التفصيل:

لقد اشتدت حملته ﷺ على هذه الرذائل.. لما لها من خطر جسيم.. وأثر بالغ فى شخصية الفرد.. وبناء المجتمع: ويتصدر مدمنُ الخمر قائمة المنحرفين..

المدمن: الذى اعتادها.. وصارت عصيرا تمشى فى دمه.. فَغَفَا منه الضمير الوازع.. فلم تعد له سلطة التأديب.. أو التأنيب!

إن الخمر أم الخبائث.. ومنها تنبع كل الشرور.. إلى جانب أثرها السيىء على الشارب نفسه:

فهى تفسد عقله. وصحته.. وكان الظن أن يشكر الله تعالى بصيانتهما.. إلى جانب كونها إتلافا للمال فى غير حله.. وهو عصب الحياة.. وخدشاً للعِرض.. وهو شرف الإنسان.

ومتى هان عرض الإنسان.. هانت فى نظره أعراض الآخرين.. ثم هى من الناحية الاجتماعية: تُوقِع العداوة والبغضاء حتى بين الأصدقاء..

والتعود عليها تعوُّدٌ على الإثم والعدوان.. بحيث يصير عادة يصعب الفكاك منها.. ويفقد المدمن صلاحية العيش فى الجو النظيف.. فتكثر عثراته..

فإذا تذكرنا أن حرمة الخمر مؤكدة.. فإن المُقْدِم على شربها أشد جرأة على ما سواها مما كان فى حرمته شبهة!

من صور المكر السيئ

وقد قرر شياطين الإنس من أعداء الإسلام أن يتخذوا من الخمر سلاحا هداما.. بناء على آثارها التى سلفت..

(١) النمل: ٥٢.

ومن ثم زينوا الشراب للواهمين فى حملة إعلامية مغرضة تعلن أن للخمر فوائد فقالوا أولا: إن الخمر تدفئ الجسم.. ويحمرُّ لها الوجه.. وتتسع بها الشرايين..

وثانيا: زعموا أن الله تعالى لم يصرِّح بشأن الخمر بمادة التحريم.. صريحة.
وقد رد المجربون والعالمون هذه الشبهة بما يلى:

أولا: نَعَمْ إن الخمر توسع الشرايين.. شرايين الجلد.. فيحمر الوجه لِتَجمُّع الدم فى جلده..

ولكن هذا الدم مسحوب من القلب والمخ؟!

فحمرة الوجه إذن.. على حساب القلب والمخ.

ومعنى ذلك: أن الشارب المخدوع يبحث عن لحظة من الوهم الكاذب ثم يُعرِّض مركز الطاقة للخطر؟!

وماذا تساوى لحظات يَحْمَرّ فيها وجهك كأنه الفجر الكاذب.. إذا خلا قلبك من الدم.. وعقلك من الطاقة؟!

يُخشى أن تكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سِعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا..

وأما عن الآيات التى يحاولون الاستشهاد بها فهى آيات سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

والمتأمل فى نسق الآيات الكريمة يخرج إلى يقين جازم بحرمة الخمر المؤكدة[2]: كما أشار العلماء:

---

(١) المائدة: ٩٠-٩٢.

(٢) الفكرة هنا للمرحوم د. محمد الغمراوى.

١ـ فقد جمع الله تعالى بينها وبين الميسر والأنصاب.. بل هى فى الطليعة..

٢ـ ثم هى: رجس.

٣ـ ومن عمل الشيطان..

٤ـ ثم أمَرَ باجتنابه توقيا من جاذبيته.. لعلكم تفلحون.

٥ـ وهى سلاح من أسلحة الشيطان:

أ ـ يوقع به بينكم العداوة والبغضاء..

ب ـ البغضاء المشتقة من الخمر أولا.. ﴿فى الخمر والميسر﴾.

جـ ـ ويصدكم عن: ذكر الله.. وعن الصلاة.

٦ـ فانتهوا.. واحذروا الخطر القادم.

العقلاء يفهمون الدرس

إن الآيات الكريمة لتصرخ فى وجوه الغافلين المسحورين بالأوهام الكذاب.. لكنهم لم يستيقظوا.. ولن يستيقظوا!

أما العقلاء فقد عرفوا.. ثم اعترفوا بخطر الخمر الداهم:

قال الإمام على رضى الله عنه: والذى نفسى بيده.. لو سقطت قطرة خمر.. فى بحر.. ثم جف البحر.. ونبت الكلأ.. ما رَغِبَتْ فيه غنمى!!

حتى الغنم.. بغريزة التوجيه.. وبدافع الفطرة.. تفر بنفسها من الخطر.. حتى بعد أن تغيَّرت قطرة الخمر كيماويا.. فصارت كلأ حسنا.. فما يغنى الحُسْن.. عن منبت السوء!

وحتى فى الجاهلية.. كانت الفطرة على سجيتها ترفض الخمر: قيل للعباس فى الجاهلية:

لماذا لا تشرب. والشراب يزيد قوتك. وجرأتك؟ قال: لا أصبح سيد قومى. ثم أمسى سفيههم. لا. والله: لا يدخل جوفى شىء يحول بينى وبين عقلى!

ومتى يقول العباس ذلك؟ يقوله فى بيئة مولعة بالخمر التى فتنت بها فتونا.. سول لها أن تخترع لها مائتى اسم.. ولعًا بها وهياما!!

إذن فهو حجة على قوم يروِّجون لها اليوم.. رضوا بأن يتورطوا فيما عف عنه حتى الحيوان.. فدنسوا كرامة الإنسان.

حتى يظل البنيان قائما

وإذا قامت الأمة بالفرائض فجعلتها أساس البناء في حياتها.. فعليها أن تحمى هذا البناء من العواصف الهوج.. ليظل مستعليا.. يناطح السحاب.. وهذا سر تحذيره ﷺ من: الخمر. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم.. وقطع الرحم..

ومع هذا فمازال أعداء أمتنا يقودون حملة الترويج.. وبخاصة ترويج الخمر.. وأخواتها من السموم الناقعات.. بيضاء أو حمراء.. أو سوداء!

وها هم أولاء تجارُ السموم الناقعات... يدافعون عن بضاعتهم.. فى عملية تحريض حتى يتسع الخرق على الراقع.. قالوا: إن بائع الخمر.. وشاربها.. فَعَلا أفضل ما يليق بهما:

أما بائع الخمر: فقد وصل إلى حد التوازن.. حين حقق الربح..

أما شارب الخمر: فقد حقق أيضا التوازن.. لمَّا حقق بالشراب أقصى نشوته!! والرد هنا إذا لم تستح.. فاصنع ما شئت!!

ومن شارب الخمر
إلى آكل الربا

وإذا كان من المقرر: أن الحسد عادل.. حين بدأ بالحاسد، فدمر كيانه النفسى.. قبل أن يدمر المحسود.. فإن مثل ذلك يقال فى الربا.. والذى يجىء التحذير منه نعمة مسداة من رحمة العالمين ﷺ: فالمرابى يحطم بناءه النفسى.. قبل أن يَحْطِم الآخرين

فمن الناحية العقلية: يطمس وهج العقل فلا يقدر على التمييز.. فهو من التخبط فى مثل الليل البهيم!

ومن الناحية الوجدانية: يجف فى قلبه نبع الحب.. فيفقد بجفافه متعة لا يعرفها إلا البسطاء القانعون.. الراضون..

ولك أن تتصور المسافة الشاسعة بين الرجلين... أمَّا المؤمن القانع فقلبه معلق

بالمسجد: يعود إلى بيته من صلاته.. وقد محا الشبهة بالدرس العلمى.. ثم غسل الشهوة بالذكر والصلاة..

وحول مأدبة الطعام يجلس خالى البال.. سعيدا على أى حال بعد أن حل المعادلة الصعبة بالدرهم الذى بقى معه وآثر به المسكين.. ذلك بأن البنك إن كان يعطيه فوق المائة أربعةً.. حراما.. لكنه آثر أن يضعها فى يد المسكين لتصبح سبعين ضعفا.

أما المرابى فهو كما يقول أطباء النفوس: يعيش معركة.. دائمة.. وخاسرة فى نفس الوقت... إن قلبه معلق بالبنك.. لا بالمسجد.. ومن ثم فهو مع الشهوات والشبهات فى صراع مستمر:

أ - فهو فى حمَّى التنافس مع رفاق المال.. مشغول بتحطيم الرقم القياسى ليكون رصيده أربى منهم!

ب - ثم.. هذا المدين.. هل يموت قبل أن يدفع؟

وإذا دفع واحد.. فهل يَفِى الباقى؟

* ويعود إلى البيت.. الساكن كالقبر.. الساكت كأنه الصحراء الموحشة ليرى آثار المعركة الدائرة فى قلبه: ليرى أولاده: شعثا.. غبرا.. رمصا.. وأثاث بيته كلٌّ شىء فى غير مكانه..

وهكذا البيت إذا غاب الحارس.. إذا غاب اليقين.. والرضا.. ومات معنى الإنسان فى قلب الإنسان!

وثالثة الأثافى هنا هى: فشل الإرادة فى اتخاذ القرار وما يترتب على ذلك من تراكم المشكلات.. كلما تراكم الرصيد.. وليت شعرى ماذا يبقى من وجود الإنسان،، لو أنه فَقَد التركيز.. والحب.. والإرادة..

لقد خسر خسرانا مبينا.. ذلك الذى ملك الدنيا.. ثم خسر معها نفسه.. والخسران هنا بداية.. وليس نهاية.. بداية الانحدار إلى السفح.. ثم إلى الضياع حين لا يجد الإيمانُ أرضا ينبت فيها..

وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى: **﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾**.

رصيد القلب
ورصيد البنك

يجلس المرابى على أريكته: مترهلا.. كسولا.. خاملا.. وديناره هناك فى السوق.. ينوب عنه فى قيادة معركة غير شريفة هى معركة الاستغلال..

وإذا كان زميله على ساحة المعركة يُسيل دماء الأعداء.. فإن المرابى باسم قانون الأثرة يمتصها.. ويمتصُّ دماء مَنْ؟ دماءَ الكادحين المحاويج.. وهكذا.. يأتيه رزقه حراما.. وبلا تعب..

وصحيح أن رصيده فى البنك يربو.. ولكن مشاعر البر والأخوة تنحسر.. وبنفس القوة.. ومع الأيام.. وكلما حقق فى معركة الاستغلال نصرا.. تذبل إنسانيته.. ليصبح كتلة من الحطب أولى بها النار..

نعم أولى بها النار لَمَّا أوقد بينه وبين إخوة له فى الإنسانية ناراً فليأخذ مكانه فى قعر جهنم.. فلا مكان له فى جنة لم يعمل لها.. وهكذا قال العارفون.

المتاجرون بآلام البشر

وإذا كان مُدمِنُ الخمر يدمّر صحته. وصحة زوجه وبنيه.. وإذا كان آكل الربا يستغل الفقير الذى لا مال له يغنيه.. فإن آكل مال اليتيم يستغل الضعيف الذى لا والد له يحميه.. وإذن فكلهم فى الغدر شرق.. لقد نشأ اليتيم بغير أب ينشر عليه رحمته.. ومن ثم.. فهو جائع إلى الحنان.. ومحتاج إلى الناصر المعين..

فإذا فَقَد الحنان.. وفقد معه المعين.. ثم تحول وليه إلى وحش كاسر ينقضّ على ثروته.. بل وعلى إنسانيته.. دون تقدير لحاجته.. فقد جعل من اليتيم عدوا له.. بل عدواً لمجتمع لم يعش مشاعره.. فلم يقف إلى جانبه.

وإذن.. فلا مكان له فى جنة لا يدخلها إلا الراحمون.. الباذلون.. ومازلت أذكر من صباى هذا الموقف... موقف المرشح الحريص على المقعد فى المؤسسة الكبرى.. عندما كان يدفع عشرات الألوف.. ثمنا لصورة تلتقط له وهو يقبّل يد الزعيم الأوحد؟! ثم تلصق على الجدران.. مصيدة لكرامة الإنسان!

وهكذا يحرص المغرور على هذه المعية.. راجياً عَرَض الدنيا.. ثم هو فى نفس الوقت يَنْكُص على عقبيه.. زاهدا فى لقاء النبى ﷺ.. وفى الجنة.. وإلى الأبد.. نظير أن يقف إلى جانب اليتيم.. وذلك قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين..**»[1] وأشار بالسبابة والوسطى.

يقف إلى جانبه... يبنى له سكنا... يدبر له عملا فيغلق سجنا.. بيد أنه لم يفعل. وأستكثر القليل هنا. واستقل الكثير هناك. أعنى: تقتير هنا.. وإسراف هناك.

العاق لوالديه

وعلى إثرهم يمضى العاق لوالديه..محروما مثلهم من الجنة ونعيمها.. لماذا؟

لأنه قابل أحسن الإحسان.. بالإساءة.. واجه جمال الرحمة.. بقبح العقوق..ومن لا خير فيه لأهله.. فلا خير فيه لأحد أبدا!

أما المتاجرون بالأعراض... أما الديوث: فإنه يفتح بيته لصديق العائلة.. حتى فى غيابه؟!

ثم تكون نظرة فابتسامة .. فخراب البيت !!

وما ظنك برجل يتخلى عن نخوة الرجولة.. بعد أن تخلى عن أوامر دينه.. هذا الذى يساوم على شرفه.. متهاونا فى عرضه.. وهو أغلى ما يملك الإنسان..

أما هذا الرجل.. فلا مكان له فى الجنة أبدا... وكيف يكون له فى الجنة مكان ـ كما قيل ـ.. والجنة يدخلها الشهداء بدمائهم.. والمجاهدون بسيوفهم.. والعلماء بمدادهم.. وإذن.. فلا يدخلها المتاجرون بأعراضهم. ولا يذوق نعيمها من تنكب طريق هؤلاء الشرفاء.. وحادّهم فى أهدافهم.

ومن ملامح المنهج الإسلامى هنا: أنه ضمن حملة التحذير من هذه الموبقات.. يستعمل الرسول ﷺ مادة الأكل.

---

(١) رواه البخارى.

ومع أن ظلم اليتيم يتحقق بقَطْع قدر من ماله وإضافته إلى رصيد الولى فى البنك.. أو بشرائه مساحة أرضية لنفسه بجزء من مال اليتيم.. إلا أنه عبّر بالأكل.. لأنه صورة منفِّرة يأباها الطبع بعامة.. والطبع العربى بخاصة..

وقد يتصورها الولى.. فيصحو ضميره نائيًا عن هذا المشهد المشين. ومن ثم يبرأ من صوَر الظلم كلها.. بعدما ذاق جرعة المرارة الشديدة بهذه الصورة الكابية.. والتى من شأنها الفرار بالولى بعيدا.. فلا يظلم يتيمه أبدا.

الحل الإسلامى

وللإسلام منهجه الراشد فى الخروج بالعاصى من محنته.. وقاية له. وللأمة من عاقبة السوء.

ويتلخص فى:

أ - تشخيص العلة.

ب - ثم تحديد المسئولية..

وعلة هذه المآثم هو: قلة الحياء.. أو ذهابهُ كله.

وإذا كانت القاعدة تقول: من كساه الحياء ثوبه.. لم يَرَ الناسُ عيبه.. فإن من خلَع برقع الحياء.. فلا عليه بعد ذلك أن يصنع ما شاء: يسترسل مع الأهواء كلما دعته.. ويحاذى الأغراض أينما توجهت فتنقطع صلته بالناس.. بعد توكيدها.. وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان..

والشاعر العربى يعبر عن هذا الانحراف بقوله:

صلابة الوجه لم تغلب على أحد   إلا تكاملَ فيه الشر واجتمعا

والأصل فى ذلك كلّه قوله ﷺ:

«كل دين خلق. وخلق الإسلام الحياء»(1).

---

(1) رواه مالك فى الموطأ.

مسئولية الفرد

والمسلم العاصى مسئول عن استرداد عافيته الإيمانية.. بالحياء الذى يستمده مما يلى:

١ ـ من تذكره لقدرة الله تعالى واستحضار رقابته.

٢ـ الإحساس بِنعمِه التى يتقلب فيها.

٣ـ ثم الطمعِ فى رحمته والخوف من عقابه.

٤ـ مجالسة الصالحين. أو مطالعةِ أخبارهم.

٥ـ ثم مراجعة حساب الربح والخسارة.

وذلك أن مصيبة الذنب تقع فيه. قد تكون أهون مما يترتب عليه وهو ذهاب الحياء.. الذى تنحدر فى غيابه إلى هوة سحيقة من الهوان الذى يسرى فى دمائك.. بعد استفراغ ما فى قلبك من نخوة العزة والإباء.

ذكر ابن الجوزى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: [يا صاحب الذنب: لا تَأْمَنَنّ سوء عاقبته. ولَمَا يَتْبعُ الذنب أعظم من الذنب، إذا عملته:

قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال. وأنت على الذنب.. أعظم من الذنب الذى صنعته..وضِحْكك وأنت لا تدرى ما الله صانع بك. أعظم من الذنب. وفرحك بالذنب إذا عملته. أعظم من الذنب.. وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به.. وخوفك من الريح إذا حرَّكَتْ سِتر بابك. وأنت على الذنب. ولا يَضْطَرِب فؤادك مِنْ نظر الله إليك.. أعظم من الذنب إذا عملته].

فهيا يا صاحب الذنب: خذ من الأمس النصيحة.. ومن اليوم.. العمل.. ومن الغد الأمل.. وباب التوبة مفتوح دائما:

وتذكر قول القائل:

وإنى لأرجو الله حتى كأننى   أرى بجميل الظن ما الله صانع

واعلم أن من حقك أن تستمتع بالحياة... ولكن الاستمتاع المشمول بالإيمان شيء.. وإيثار العاجلة شيء آخر.

[إن النفس البشرية تهوى النساء. وتهوَى الأموال وتهوى الزينة والمتعة.

لكن هذا الذى تهواه.. إنْ عَبَدَتْه.. من دون الله قتلها.. وإن تناولَتْه باسم الله أحياها..

إن لجج الماء قد تغرق الزرع فلا ينبت.. وقد تُغرق الإنسان فيهلِك.

لكنه إذا تناول هذا الماء بقدر منظَّم.. فإنه يحيا به. كما أن هذا الماء إذا أرسل إلى الأرض بمقادير معقولة نبت عليه الزرع والضرع] [1]. أ.هـ.

ومن دروس الدعوة هنا:

ما هو مصير ذلك المنحوس الذى لن يدخله الله الجنة.. ولن يذيقهُ نعيمَها: إن مصيره النار.. وبئس القرار..

والسؤال الآن:

لماذا لم يقل ﷺ: أربعة مصيرهم إلى النار؟ واختار: لا يُدخلهم الجنة.. لعله ﷺ اختار هذا التّعبير المخفف.. لأن الأمر يتعلق بصنف من الناس بلغ فى الشر مداه: وإذن فأحْوج الناس إلى اللين أكثرهم غلظة.. ذلك بأنه يقف بالإدمان.. والأكل.. والربا..والعقوق على حافة الهاوية.. فإذا صدمته.. وقع فى الهاوية.

أما اللمسة الخفيفة.. فقد توقظه.. ليعود معنا قانتا لله حنيفا.

أما بعد: فنتساءل مع المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين:

[ماذا يردع النفوس عن أن تُرى حيثما نهى الله.. ويُغلِقُ فى وجوهها أبواب الفُسوق والملاهى؟

والجواب يتكفل به الشيخ حين يقول [2]:

إنه: كبَر الهمة ! ماذا يَقْبض من الأيدى حتى لا يأكل الظالمون فريقا من أموال الناس بالإثم؟ علوُّ الهمة!

(١) من خطبة للشيخ محمد الغزالى.

(٢) حياة الأمة: ٣١- ٣٢ بتصرف.

ماذا يوحى إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلباته وزنا بالقسط. حتى إذا جَسَّتْها يد النَّاقد الحكيم لم تجد فى حركاتها طيشا عن الأغراض التى ترمى إليها ذوو العقول النيرة؟.. كِبَر الهمة..

كِبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق فى مجارى التملق والمداهنة.. ويُصفِّد الأقدام عن غشيان المنازل التى لا تطأ فيها على بساط الاحترام والحفاوة.

كِبر الهمة يصيِّر العالم الأمين عودا مراً. ومكْسَراً صلبا. يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشَّجَى بين الحلق والوريد. ويصارعهم بقول الحق الذى تشتد عُراه على أكِنَّتِهم إبراما.

كِبُر الهمة يستفز الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذى آتاه هكذا وهكذا. متحريا به مصارف المَبَرَّات التى تقر به إلى الله زلفى] .

من صور
التكافل الاجتماعى

روى مسلم بسنده: عن جرير بن عبد الله البَجَلى رضى الله عنه قال:

كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ. فجاءه قوم عراة. مُجْتَابى النِّمار أو العباء. متقلدى السيوف. عامتهم من مضر. بل كلهم من مضر فَتَمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ. لما رأى بهم من الفاقة. فدخل. ثم خرج. فأمر بلالا فأذن وأقام. فصلى. ثم خطب فقال:

«﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.

والآية التى فى الحشر: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.**

«تَصَدَّقَ رجل من ديناره.. من درهمه.. من ثوبه.. من صاعِ بُرِّهِ.. من صاع تمره. حتى قال: ولو بشق تمرة».

قال: فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها. بل قد عجزت قال: ثم تَتَابع الناس. حتى رأيت كَوْمَيْن من طعام وثياب.

حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ. فقال رسول الله ﷺ:

«من سنَّ فى الإسلام سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء. ومن سن فى الإسلام سنَّةً سيئة.. كان عليه وزْرها ووزرُ مَنْ عمل بها من بَعده من غير أن يَنقُصَ من أوزارهم شىء»[1].

---

(١) النِّمار: بردة من صوف يلبسها الأعراب تشبه جلد النمر.. خرقوها. ثم لبسوها. والحديث رواه مسلم - باب الحث على الصدقة.

تمهيـــــد:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه﴾[1].

ويقول أطباء النفوس: أنت إنسان.. نعم.. ولك إرادة حرة.. نعم.. ولكنك من هذه الحيثية غير مرشح لقطع المسافة بنجاح.. إن لم تكن مسلما..

وما معنى أنك مسلم؟ معناه: أنك مؤمن.. مخلص... وإيمانك فى حاجة إلى لقاح. هو: العمل الصالح... وإخلاصك فى حاجة إلى لقاح. هو: صحة الاقتداء برسول الله ﷺ... فإذا آمنت.. وأخلصت.. فاتَّبعت الرسول صار عملك مقبولا. ووصولُك مأمولا.

وهكذا كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين...لقد كانوا يحبونه ﷺ.. وإذن فطاعته فى أمر مَّا.. يكفى فيها مجرد الإشارة المُغْنية عن العبارة..مجرد الإشارة أو العبارة التى يرونها. أو يسمعونها.. فإذا هم يسارعون فى الخيرات.. بعد أن أحدث التوجيه النبوى رجفة بالداخل.. حركت الأيدى بالعطاء.. والأعين بالبكاء.. فَرَحًا بِمَنْ جاء من الفقراء يحوّل أموال دنياهم.. إلى أخراهم: من الفرش.. إلى العرش!

المربى العظيم

وما كان للصحابة أن يرتفعوا إلى هذا المستوى العالى.. إلا بتربيته الإيمانية.. ﷺ: فلم يكن فى قيادته ذلك الفلكىَّ الراصد للنجوم فى أفلاكها العالية.. بينما الهموم تحت قدميه.. لا يراها..

ولم يكن ذلك الشاعر الذى يركب متن الخيال.. يطُوف به عالما مسحورا.. متجاوزا واقع الناس الطافح بالمشكلات..

وإنما كان قلبه الكبير واحة ظليلة بليلة.. تَسَعُ هموم أمته.. وبخاصة فى المنعطفات الخطيرة.

ومنها ذلك الموقف.. والذى يصوره الحديث الشريف.. والذى ظهرت فيه القيادة على أوفى ما تكون الحكمة.. والنجدة.

(١) الانشقاق: ٦.

ثم بدا الجنود على أوفى ما تكون الطاعة.. فكانوا على ضيق ذات اليد كما قال الشاعر:

هو البحر: من أى النواحى أتيته فلجته المعروف. والمجد ساحلــه!

سريع إلى ابن العم فى محنته. فى الوقت الذى تحميه تقواه عن كل ما يشين:

له حاجب عن كل فعل يشينـه وليس له عن طالب العرف حاجب

موقف الوفد

كان القوم هنا أعرف بحالهم وأكثر إحساسا بحاجتهم إلى العون.. فلِمَاذَا جاءوا إلى الرسول ﷺ.. وكان هناك أكثر من أسلوب يحصلون به علَى ما يريدون؟

لماذا لم يغضبوا؟ ولماذا لم تكن غضبتهم مضرية ـ وهم من مضر ـ كما يفعل اليائس الذى يأكل فى ثَوْرته الأخضر واليابس؟

بل لماذا لم يميلوا بأسلحتهم على ضيْعةٍ مثلا عبر الطريق.. فكانوا على حد قول الشاعر:

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا.. لم يلتمسه سؤالا؟!

لماذا لم يفعلوا ذلك.. وبين أيديهم ومن خلفهم ما يفرِضُ عليهم ذلك من مفارقات تثير غضب الحليم؟

فهو يرى واحدا.. يملك ألفا.. وألفا.. لا يملكون واحدا!

بَيْتُه على ما يقول الشاعر الناقم:

سقوف بيوتى صِرْن أرضا أدُوسُها وحيطان دارى ركّع وسجود!

بينما جاره يقيم فى قصر رفيع الذرى عالى الشرفات.. والجواب:

أولا: هم مؤمنون.. يعلمون أن رزقهم فى السماء.. فلن يضيع. وأجلهم فى كتاب.. فلا سلطان لأحَدٍ عليه.

وثانيا: للأمة رائد لايكذب أهله. تهُرع إليه آمال الملايين فيسعها قلبه الكبير..

وموارد الأمة.. فى يد أمينة.. وقلوب الصحاب راغبة فى المعروف؟ وإذن.. فقد استبعدوا اقتراح العنف.. فكان هذا العرض.. الذى كان فيه لسان الحال أبلغ من لسان المقال.. حين جاءوا يتقلدون سيوفهم فى ثياب من صوف تشبه جلد النمِّر.. خرقوها ثم لبسوها؟

موقف الرسول

كان للرسول ﷺ موقفان:

أ ـ نفسى. ب ـ وعملى.

أما النفسى: فقد دل عليه تمعر وجهه الشريف.. وما شى به من فوران النفس بمختلف المشاعر.. من قسوة المشهد..

ولا شك أن الصحابة فهموا الدرس جيدا.. وتحركت فى قلوبهم الأريحية انتظارا لأمر الرسول ﷺ.

لكن حُرقة الوجدان لا تمسح دموع الإنسان وكان لابد من موقف عملى:

ذهب أولا إلى بيته لعله أن يجد شيئا. فلما لم يجد.. قرر تصعيد الموقف.. فأمر بلالا.. فأذن.. ثم صلى.. ثم كانت الخطبة المركزة المؤثرة:

ولكن: لماذا تمعر وجهه الشريف؟! لقد كانت العين بصيرة.. واليدُ القصيرة..

وهذا هو الكريم الذى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر.. لا يستطيع أن يفعل للبائسين شيئا:

لقد نظر إليهم بحسه الاجتماعى: فإذا هم قِطَاع من الأمة يوشك لو أهُمل أن يَحرمِ الأمة من عضو من أعضائها. ثم تملاهم بعين القائد العسكرى فإذا هم: يحملون السلاح. ولكن بأيد راعشة.. لا تقدر على استعماله.. وهى طاقة معطلة يمكن بالتعاون أن تكون سندا للحق ودرعا للأمة.. ثم.. رآهم بعين المصلح الاجتماعى.. فإذا هم وأستعير هنا ما قاله أديب معاصر: [إذا هبَّت الدجاجة تحمى فراخها.. استماتت فى الدفاع.. فانقلبت صقرا..

والقطة إذا ضُويقت. فغضبت.. صارت نمرًا.. والهواء إذا انفجر.. صارا

إعصارا.. والسيل إذا اندفع.. كان سيلا.. والأسد الجريح إذا برئ.. سينتقم يومئذ من الثعالب التى كانت تلعق من دمه.. والويل يومئذ للثعالب!!

الحل العملى بدأ الحل العملى بدخوله ﷺ بيته وخروجه.. بحثا عما يسعف به هؤلاء.. فلما لم يجد.. بدأت الخطوة التالية:

نهض ﷺ.. فوضع حدا لمثل هذه الخواطر. فكان ذلك الحلُّ العملى.. عن طريق ما سنَّه من: التكافل الاجتماعى الآخذ بيد المحتاجين.. فكان الرائد الذى يغنى الفقير.. ويجبر الكسير.. ويفك الأسير!.

إن الحل العملى هنا.. هو الحل الأمثل الذى يأسو الله تعالى به الجراح.. وما أكثر الدمع المسفوح على مأساة المسلمين فى البوسنة مثلا.. بينما.. ينهض حاكم.. وبلا دموع.. يصب المعونة العاجلة غيثا مدراراً يُحْيى به الله نفوسا.. ويُلقِّن مصاصى الدماء دروسا!.

إن مجرد صلاحية العين للإدراك لا يكفى.. لابد من أمر زائد ليكون الإنسان إنسانا هو: أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

من أساليب الدعوة:

هناك داعيتان للبخل لدى الإنسان: داعية الطبع.. ووسوسة الشيطان..

من أجل ذلك نرى الرسول ﷺ يعالج الأولى.. بما يرقق هذا الطبع الكانز.. عن طريق التذكير بمجموعة من الروابط التى تفرض عليك أن تبذل ما عندك..

وهذا ما تكفَّلت به آية سورة النساء التى ذكّرت الصحابة بحقوق هؤلاء المحتاجين عليهم:

١ـ أخوّة الإنسانية.

٢ـ ثم أخوّة العروبة.. فهم أبناء العمومة من مُضَر..

٣ـ ومع هذا.. وقبل هذا: أخوة الإسلام.

أما آية الحشر: فقد قطعت الطريق على كيد الشيطان:

إن خطة الشيطان المريد تستهدف إغراق المسلم فى حاضره.. بمثل هذه الخواطر اللاهية التى يرددها الفارغون القائلون:

هُبُّوا املأوا كأس المنى.. قبل أن تملأ كاس العمر كف القدر.. وعيشنا طيف خيال.. فنل حظك منه قبل فوت الشباب.. ومَنْ أصدق من الله قيلا.. ومن أصدق من الله حديثا.. حين قال تعالى: **﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1].

وقد جاءت آية سورة الحشر **﴿..اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾** جاءت.. لتَرُدَّ كيد الشيطان.. ولتنتَزِع الإنسان من براثنه.. من الاستغراق فى حاضره.. لِيُدخل المستقبل فى حسابه.. بإنفاق ماله من أجل يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فكأنما تقول لهم الآية الكريمة: واتقوا الله.. فالشيطان يريد أن يُغرقكم فى لذاذات الحاضر.. حتى تصبحوا أمة بلا مستقبل.

وسر التأثير على ما يقولون: المعروف لمن رغب فيه.. وليس كل راغب فيه بقادر عليه.. ولا كلُّ قادر عليه بمأذون له فيه..

فإذا اجتَمَعتْ الهمة..والقدرة..والإذن..فقد تمت السعادة: سعادةُ الطالب.. وسعادةُ المطلوب.

وهكذا كانت خطة الرسول ﷺ: فإذا كان مهما أن يجود الصحابة.. فأهم منه أن يكون الجود على شَرْطَيْهِ:

أ ـ أن يحفظ كرامة الفقير.. فلا يسأل.

ب ـ وأن يتبرع الواجد برضاه.. فلا يتبرم..

إنه عطاءٌ.. صدقةٌ.. زكاة.. وليس ضريبة تؤخَذُ اغتصابا.. إنه عطاء الأخوة.. وليس عطاء الامتنان.. ولذلك أحسن ﷺ مرتين:

١ـ مرة حين أسرع إلى بيته لينهض هو بالحمل كله.

٢ـ وأحسن ثانيا لَّما أحسن الاستشهاد بالآيتين على النحو الذى يستخرج به الصدقة.. حتى من البخيل.. وعن رضا..

---
(١) البقرة: ٢٦٨.

نجاح الإسلام
وسقوط الشيوعية

ونجح الإسلام حين نهض بالفقير إلى مستوى الكفاية.. والذى حَرَّر الغَنِىَّ من جاذبية الفائض.. فعاشوا معا بقلب واحد. وصار هذا القلب عرشا.. يتربع عليه زعيم.. زعيم لا يرتفع على جماجم الضحايا.. وإنما كان عرشه: القلوب.. ونشيده الأثير.. وجيب هذه القلوب!!

فى الوقت الذى يضحك فيه شياطين الجن.. من شياطين الإنس الذين لا يجدون متعتهم إلا فى الحروب الضروس يثيرونها بين طوائف الأمة.. ثم يشربون نخب السعادة على أنات المطحونين!!

وهو درس للدعاة.

أن يحسنوا اختيار النص.. ليجىء فى ظرفه المناسب:

ولابد لأطباء النفوس من أمرين:

أ ـ من تشخيص العلة.

ب ـ ثم من وصف الدواء المناسب.

وكم من مجال الدعوة من صيدليات متنقلة.. محملة بشتات من الأدوية.. ولكن قل معى.. أين الطبيب المداوى؟!

وعاد الوجه
كما كان مذهبه

وأشرق وجهه ﷺ كأنما هو مذْهبه.. لقد وجد بين يديه أجمل الجمال وهو: تنافس الصحابة فى البذل:

الواجدين.. والفاقدين جميعا.. ولئن كان أسعده ذلك السَّخِىُّ.. الذى عجزت يداه عن حمل صُرَته.. فقد كان أكثر سعادة بمن قسم درهميه على اثنين.. فجاء بواحد.. وترك وحدا لأولاده:

ذلك بأن التصدق بالقليل قد يكون أدل على الإيمان: لأنه يؤكد أن المقل حين يعطى يعطى ما يحتاج هو إليه.. لا ما يحتاج الآخذ إليه..

وليس السخاء أن تعطينى ما أحتاج أنا إليه.. بل ما تحتاج أنت إليه!

وبدا لنا: أغنياء الحرب
وأغنياء الإسلام

ولقد عاد الوفد بما هو أعز من المال الذى أخذوه.. وهو: هذا الإيمان الذى عبَّر عن نفسه من خلال الصحابة.. والذى عاد بالثقة إليهم.. حين وجدوا أنفسهم أمام أغنياء الإسلام لا أغنياء الحرب:

إن أغنياء الحرب يُفقرون الأمة.. ليظل المال دُولة بينهم.. بل قد يميتونها.. ليعيشوا وحدهم..

أما أغنياء الإسلام: فقد وفقهم الله للعمل.. وكان العمل صالحا.. فَقبُل.

شىء واحد تركه هؤلاء المُضَريون فى المدينة المنورة:

إنها قلوبهم التى بقيت فى المدينة متعلقة بإخْوةٍ لهم فى العروبة والإسلام.. تحت راية رائد لا يكذب أهله.. ويبقى أملنا نحن اليوم قويا فى مستقبل واعد كريم:

يخلص فيه الواجدون.. ويرضى فى ظله الفاقدون..وما أكثر الأغنياء.. المستعدين للبذل.. وبنفس الدرجة: ما أكثر العصاة الراغبين فى التوبة.. ولكن: ما أقل المصلحين.. القادرين على إقناع الأغنياء بالبذل. وما أقل الدعاة الصالحين للهداية.. ويوم ينشط هؤلاء المصلحون.. ليكونوا أسوة ودليلا، ويوم يستيقظ هؤلاء الدعاة.. فيتخذون من الحكمة سبيلا يومئذ. ويومئذ فقط يفرح المؤمنون بنصر الله.

الطريق
إلى عزة المؤمن

قال ﷺ: **«والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله.. أعطاه أو منعه»**[1].

تمهيـــــد:

إذا كانت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. فقد كانت الحاجة ماسة إلى ترسيخ دعائم هذه العزة فى قلوب المؤمنين.. ليتسنى لهم حملُ أمانة الإسلام.. والتى لا يلقاها إلا الأعزاء.. ومن وسائل التمكين لهذه العزة: تحريم المسألة على من يستطيع الكسب بما لديه من فضل طاقة. أو حيلة.

والحديث الشريف يقصد إلى التنفير من المسألة الجارحة للكرامة.. الجانحة بالسائل عن سواء الصراط بقدر ماهو دعوة إلى العمل الشريف بديلا عن الهوان الذى تأباه طبيعة الإيمان.

هذه الدعوة التى كانت مَعْلَماً مِنْ معالم السنة منذ اللحظة الأولى للدعوة: فقد ورد فى الصحيح أن المهاجرين لَمَّا قدموا المدينة بلا مال.. عرض الأنصار على الرسول ﷺ أن يَقْسِم النخيل بينهم وبين المهاجرين.

ورفض الرسول الفكرة.. لأنها وإن عكست أفضل ما يليق بالأنصار.. فلم تكن هى أفضل ما يليق بالمهاجرين.. الأعزاء الأحرار.. بل سوف تكون الفائدة مخصومة من كرامتهم..

فلما عرض الأنصار فكرة أن يكفيهم المهاجرون مئونة العمل.. ويقاسموهم الثمر.. قَبِل ﷺ الفكرة التى تحفظ كرامة الفريقين على سواء.

---

(١) رواه مالك.

خطط الإصلاح

بين السلبية والإيجابية

وربما يود كثير من المخلصين أن يُغمضوا أعينهم ويفتحوها.. ليروا كل الناس من حولهم مؤمنين. بل لعل أحدهم قاتلٌ نفسه إن لم يكونوا مؤمنين.. ولكن ما هى خطتهم فى الإصلاح؟

إنهم لا يملكون سوى عقيدة يجأرون بها.. مندِّدة بالانحراف.. داعية إلى القضاء عليه..

وأين البديل؟ أين البناء الجديد.. على أنقاض البيت القديم؟

ليس هناك إلا البكاء على الأطلال.. وعهدنا بالبكاء أنه لا يحيى الموتى.

ولقد كانت خطة الرسول إيجابية: فقد حذر ﷺ من المسألة.. فرارا من سوء عقباها.. وفى نفس اللحظة حضّ على العمل.. ولو كان جمع الحطب.. على ما فيه من مشقة.. وامتهان للنفس تنفر منه الطباع.. وفى سبيل إعانة المسلم على اتخاذ قرار العمل يقف به هنا بين داعيين يناوشانه من قريب:

داع إلى فضيلة العمل.. حفاظا على كرامته.. وداع إلى الكسل يذلل له سبل الهوان تذليلا.. بالسؤال.. الذى يُذل أعناق الرجال.. وما كان لبشر أن يُعرض عن توجيه رسول الله ﷺ مادام على طريقه مستمسكا بأسباب عزته.. فلابد أن يختار الموقف الصعب.. أن يختار العمل.. تهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول.

مسوغات الاختيار

ولكن.. ما الذى يحمل المسلم على اختيار العمل الشريف؟ هو ما أشار إليه الرسول ﷺ من أن ذلك [خير].. وهذه الخيْرية من الرحابة بحيث تشمل الفرد والمجتمع معا:

ذلك بأن الحديث يخاطب الفرد.. من خلال الجماعة **«لأن يأخذ أحدكم حبله»**.

أما بالنسبة للفرد: فالعمل إنقاذ لك من الهوان فى حالتى الإعطاء والمنع.. معا:

فى حال الإعطاء: فالباذل: قد يتردد فى إعطائك ابتداء.. وقد يعطيك من ردىء ما عنده..

وقد يلاحقك بالمن والأذى.. فلا يترك لك فرصةَ تَذَوّق المأخوذ.. إن كان السؤال قد أبقى لك حاسة الذوق؟!

وفى حالة الرفض ينطفئ فى وجهك القنديل.. ثم ينطفئ حتى لم تعد تحس بوضعك المتردى:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ثم ينعكس ذلك كله على الزوجة.. والولد ذلا.. وهوانا.. يجعل من الأسرة ضَيْفًا ثقيل الظل.. غير مرغوب فيه!

والحديث الشريف يعطيك طوق النجاة من ذلك كله.. لتُثبت بالعمل وجودك المضاف إلى وجود الآخرين.. ومنكم جميعا يصير المجتمع قويا.. غنيا..

ولقد يكلفك العمل جهدا.. ووقتا.. وحيلة.. ولكن.. مرحبا بتعب الجسم.. لتظل قلوبنا فى الصدور.. مطمئنة راضية.. بهذه العيشة الراضية..

مسئولية المجتمع

إن قيام الفرد بواجبه عاملا آملا.. يعنى القيام بحاجة من حاجات الأمة وإذن فواجب المجتمع أن تتضافر جهوده.. كل فى موقعه.. وعلى قدر استطاعته.. فى محاولات للقضاء على هذه العلة السارية بالعدوى فى جسم الأمة.. يُعينُها على ذلك ما قرره المجربون.. حين قالوا:

[فى إخلاد القادر على الكسب إلى السؤال بَلِيّتان اجتماعيتان

أولاهما: فوات الانتفاع بشخص يُمْكنه أن يكون كقطرة صالحة. فى دم حياة الأمة. فتزداد به قوة على قوتها.

وثانيهما: بقاؤه فى جسم الأمة كعضو يشرب من دمها. ويأكل من لحمها. بل كعضو يسرى منه مرض البطالة إلى أشخاص لا تَعرِفُ نفوسهم العزة فيكثرُ سواد هؤلاء الثقلاء فى البلاد][1].

(١) من مقال للشيخ محمد الخضر حسين.

واجب الدولة

ويتجه إلى الدولة تذكير وتحذير:

تذكير بما كانت عليه الأمة فى عصرها الأول.. من حيث كان المسلمون كخلايا النحل.. يعملون.. لا يفترُون: المهاجرون.. يشغلهم الصفْق فى الأسواق.. بيعا وشراء.. والأنصار.. مشغولون يُفلحون الأرض.. فى حركة تكتفى بها الأمة ذاتيا حتى لا تستورد القمح من أعدائها.. حتى أهلُ الصفة المساكين - كما قال بعض العلماء:

[لم يكن أهل الصفة إلا بمنزلة الجنْد المهيأ للدفاع] كانوا كذلك.. على ما كان بهم من فقر ومسغبة.

فإذا تم ذلك.. لم تكن بالدولة حاجة إلى أن تسأل غيرها إلا إذا كانت قادرة على الوفاء بعهودها. وهذه المسئولية اشتقها العلماء من هذا الحديث الشريف حين حمَّل الدولة مغبة السؤال.. سؤال الأجنبى.. ولو كان السؤال على مستوى القروض.. فرارا من عاقبتها.. وفوائدها التى تطوق الأمة فى نهاية المطاف.. فلا تستطيع أن تتخذ قرارها الموائم لمصلحتها.. فالذى يمد يده.. لا يملك أن يمد رجليه!!

أسلوب الدعوة
وأسلوب الدبلوماسية

ولا تكفى صحة الخطة «حتى يضيف الداعى إلى سلامة الخطة» سلامة الطريقة التى تَحْمل الخطة إلى قلوب المدعوين:

وقد تمت موعظة الرسول ﷺ صدقا وعدلا: لقد كان للمدعو رحمة

أ - فهو يصدِّر الموعظة بالقسم.. كما جاء فى رواية أخرى..

وما بالمسلمين من حاجة إلى قَسمه.. فثقتهم به فوق الشك والتهم.. لكن قَسَمه يعنى أهمية القضية التى لا تتعلق بمال.. أو عيال.. ولكنها تتعلق بما يكون به المال مالا.. والعيال عيالا.. وهو: كرامة الإنسان..

ب - ثم يختار من صور القسم «والذى نفسى بيده» وما يَشى به من أنه والسامع فى قبضة الله تعالى.. وما ينشئه فى القلب من رهبة تحمل على الالتزام.

جـ - ثم ينبه السائل إلى أنك حين تسأل.. تسأل رجلا «أعطاه الله من فضله» وإذن «فَرَبُّه وربُّك الله.. فلماذا لا تتعرض بالعمل لفضل يصيبُ الله به من يشاء من عباده العاملين.. ويد الله تعالى ملأى لا تغيض.. وليست المشكلة فى العطاء.. فهو مضمون.. لكن المشكلة عندك أنت.. فلتتحرك همتك.. عاملا.. بدل أن تتحرك يدُك سائلا!

وهذا فرق ما بين الدعوة الإسلامية والدبلوماسية يتضح لك المعنى من هذه الصورة: قال الوالد لولده الذى يسأله عن الديبلوماسية:

تستطيع يا بنى أن تقول لامرأة قبيحة الوجه، وعلى مرأى ومسمع منها: عندما تنظرين بوجهك القبيح إلى الساعة.. فسوف تتوقف عقاربها!! ولكن القسوة بادية فى هذا التعبير..

ومن والدبلوماسية أن تعبر عن نفس المعنى بقولك: كلما نظرتُ فى عينيك.. أشعر بأن الزمن يتوقف! إن والدبلوماسية يا ولدى هى:

أن تزعج الناس.. ولكن بطريقه غير مزعجة. وهى بهذا المعنى لون من النفاق الاجتماعى:-

فظاهرها يشى بالرحمة.. وباطنها فيه العذاب. أما الداعى فهو حين يأمر.. وحين ينهى فهو رحمة مهداة:

لا يريد إزعاجك.. وإنما يريد راحتك..

وحين يستودع قلبك معانيه.. فهو يزفها إليك هيّنة لينة.. ثم يعينك على تقبلها بما يجلى لك من فائدة تعود عليك.. لا على الداعى..

إن الدعوة تحمل من القرآن.. معنى الفرقان: فهو الحق الواضح.. الذى يقف بك على أو فى معانى الصراحة.. ولك أن تختار ما يفيدك.. فى وضح النهار فإما إلى جنة.. وإما إلى نار. باختصار:

إن الدعوة: مهمة شريفة.. أما غيرها فمجرد وظيفة!!

قال ﷺ:

«يا نساء المسلمات: لا تحقرن جارة لجارتها. ولو فِرْسَن[1] شاة»[2].

لأنه ﷺ من أنفُسنا فهو أعْرف بطبيعتنا.. وأقدر على امتلاك زمامها.. [بالكلم الطيب.. والعمل للصالح] ولأنه من أنْفَسنا.. فهو حريص علينا.. راغب فى إنشاء أرقى العواطف فى قلوبنا.. لتصير بالمودة قلبا واحدا.. ولأنه بالمؤمنين رءوف رحيم.. فهو يأخذ بأيدينا على الطريق.. ولا يتركنا على الدرب حيارى.. بل يحدد المنهج..[منهج السير]وصولا إلى ما نريد ويريد من خير وبر.

وإذا كانت الرشوة كما قيل:تُعطى اضطرارا.ثم هى تعبير عن ظلم المرتشى. وكراهية الراشى له.. وإذا كانت تُعطى سرا.. فيترتب على ذلك كله: التحاسدُ والتنافر..

إذا كانت الرشوة هكذا.. فإن الهدية على العكس: فهى تعبير عن الود.. تعطى تطوعا.. وعلانية.. تفعلها وأنت مستريح إليها راضٍ عنها.

فتُحققُ الأخوة الجامعة.. وهو ما يأمرنا به الحديث الشريف.. تدعيما لمشاعر الود.. عن طريق التهادى. والذى يبدأ من الصفر.. من الفِرْسن.. من الحافر.. يُقبل به الإنسان على أخيه الإنسان.. بطاقة من الحنان هى أكبر فى الميزان.. من حجم الهدية.. التى ترمزُ إلى هذا الحنان فى قلب إنسان. [مهما كان ثمنها زهيدا].

ولكن الحديث الشريف.. يستدعى النساء.. دون الرجال.. ثم يستدعيهن بحرف النداء «يا».. [دون الألف مثلا]. وإذا كانت الياء لنداء البعيد.. فيعنى ذلك استدعاءهن لقضية مهمة هنّ منها بالمكان البعيد.. وعليهن أن يستحضرنها كاشفات حجب الغفلة عنها بالاستجابة طاعةً لله ورسوله. والمرأة بالذات هى صاحبة القضية:

فهى الملازمة للبيت.. ثم هى التى تمثل الجسر.. إذا كان الزوج يمثل البحر.. وإذن فهى أصيلة فى عملية المنع والإعطاء وعليها المدار فى تقوية العلاقة

(1) الفرسن للشاة: كالحافر للدابة.

(2) متفق عليه

بين الجيران.. بما تعطى من بيتها بإذن زوجها..

ثم هى مستدعاة مع بنات جنسها إلى كسر حاجز الحياء.. بالإعطاء قليلاً كان العطاء أم كثيرا..

إن المرأة بطبيعتها تُعنى بجمالها.. بمظهرها.. وقد يفرض عليها حب الظهور أن ترفض التبرع إلا إذا كان ملبيا رغبتها فى حب الظهور.. فكان كثيرا..

ولكن الحديث الشريف يخترق هذا الحاجز المنيع.. حين يحرضها على الإهداء ولو بفرسن شاة.. لا يساوى شيئا لماذا؟

من ناحية المهدى إليه:

١ـ إن كسرة الخبز لا تساوى فى ذاتها شيئا.. ولكنها شىء مهم فى نظر الجائع.

٢ـ وإضافة إلى جانبها المادى فهى جبر لخاطر المهدى إليه وقد تنشئ صداقة - تتنامى أغصانها مع الأيام..

٣ـ ولو كانت الهدية حافرا.. أو ظلفا محرّقا.. فهى على أى حال.. أفضل من العدم.. الذى يشعر معه الإنسان بأنه ساقط من حساب الآخرين..

ومن ناحية المُهدى:

١ـ فهى تدريب على البذل.. وأول الغيث قطر ثم ينهمر.

٢ـ ثم هى إعلان من قبل المُهدى يقول لصاحبه: أنت فى ذاكراتى.. وطيفك فى خيالى لا يغيب.. إنك لست وحدك.. فأنا معك على الطريق.. ولو كان عندنا أكثرُ لأعطيناك.. لكن العين بصيرة واليد قصيرة!

وإذن فقبول الهدية الصغيرة إبقاء على نوايا الخير راغبة فى الخير.. قبل أن يجف نبعها بالإعراض. وإذ يفعل المهدى.. ما يليق به.. فعلى المهدى إليه أن يرد الجميل قبولا.. واعتداداً.. مهما كان حجم الهدية.. وإلا.. فإن احتقار الهدية.. وتجاهل آثارها على النحو الذى ذكرنا.. كفران بالنعمة.. وجحود لهذا التودد من قِبَل أخيك الذى يجود بما عنده.

وفى الحديث: «**كفى بالمرء شرا أن يحتقر ما قُرّب إليه**»[1]. وإن تعجب فعجب أن تحمل إلى أخيك المسلم هدية.. قد تكون ثوبا.. وقد يكون ثمنه غاليا..

وإذا أنت بالمهدى إليه على ما قيل:

مال واحتجب وادعى الغضب ليت هاجرى يشرح السبب

والسبب هو: أنك فضّلت زميلا آخر.. أخَذَ ثوبا من نفس النوع.. لكنه لم يكن من نفس اللون..!! ولله فى خلقه شئون!

والحديث الشريف درس لهؤلاء الآخذين أن يقدُروا الموقف قدره..

ثم هو درس للمسرفين فى استجلاب الهدايا. بالألوف التى تصبح بعد توزيعها.. ذكرى ليتجهوا بهذه الآلاف وجهة عمرانية.. تسعد القرية.. أو الحى.. بإنشاء مؤسسات علمية.. تجمع هذه الشوارد من الهدايا.. لتصبح على مدى الأيام معلما باقيا.

---

(١) الحديث فى الترغيب جـ٣/ ٢٤٤.

المسألة
وكرامة الإنسان

روى ابن خزيمة فى صحيحه. والبيهقى بسنده: عن رسول الله ﷺ:

«الذى يسأل من غير حاجة كَمَثل الذى يلتقط الجمر».

وفى رواية: **«من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا».**

وفى رواية الطبرانى: **«فكأنما يأكل الجمر».**

تمهيد:

عندما يستمرئ الإنسان المعصية.. فإن الألفة ستُفْقِده الإحساس بخطرها الذى يمشى فى دماه.. كأنما هو السم البطىء.

فإن واجبَ الداعية هزُّه.. وبعنف.. ليستيقظ الإحساس البليد.. فيشعر بالخطر المحدقِ به.. على دقات الحقيقة الرادعة..

وذلك واضح من تعبيره ﷺ موضحا من احترف السؤال بقوله:

«كمثل الذى يلتقط الجمر».

أو يسألُ غيره الجمر..

يلتقطه طواعية.. فإن لم يجده.. الْتَمَسه لدى الآخرين!

لا بل إنه لا يلتمسه ليلْهُوَ به وإنما هو: يأكل هذا الجمر.

يأكله فى بطنه ناراً!!

والحديث الشريف: جزء من حملة الإسلام للقضاء على ظاهرة التسول.. والتى يلاقيها على جبهتيك.

جبهة الأغنياء..

وجبهة الفقراء..

وإذا حَمَى الإسلام أموال الأغنياء بإنفاقها فى سبيل الله قبل أن تكون ناراً

تُشْوَى بها أجسادهم..

فإنه وبنفس القوة يحمى الفقراء من ذل السؤال قبل أن يكون جمرا فى أيديهم.. بل فى قلوبهم!

أى أنه يحمى السائل من نفسه.. حتى لا يكون عدو نفسه!

الجزاء العادل:

ولكن.. هل يستحق ذلك السائل أن يكون كذلك.. راجع من المسألة بهذا الجزاء الرادع..

ذلك بأنه طراز فريد.. عتيد.. محترف:

فليس هو ذلك المحتاجَ.. الذى يبيت على الطوى أياما وليالى.. ثم لا يسأل إلا عندما يرى بوادر الموت جوعا!

وإنما هو ـ كما تشير الرواية محترف:

فهو ابتداء.. قد رفض العمل الشريف.. وآثر أن يكون عالةً على المجتمع..

وثانيا: سار السؤال عادةً له.. كم يفيد فعل المضارع:

[يسأل..]

ثم إنه: يسأل الناس لا يُفَرِّق بين واجد.. وفاقد..

بين صغير ولا كبير.. مصرٌّ على أن يُرِيق آخر قطرة من ماء وجهه..

وآخرَ أمل فى الإبقاء على كرامته.

وليته يسأل لِيُطْعم صِبْيَةً يتضاغون جوعا.. أو يسدد دينا يؤرقه هَمُّه..

لكنه يسأل: تكثُّر.. فَلَدَيْه فى البنك رصيد.. يريد أن يتنامى.. ولو على حساب كرامته.

ومن ثم كان هذا الجزاء جدير بمن يُحس بالدرهم فى يده.. ويتخيله رصيد فى حسابه كان جديرا أن نهزه هزا ليعرف حقيقة وضعه وأنه.. لا يَزيدُ رصيدا.. وإنما : يتلقى عقابا شديد. وليس الدرهم عملةً فى يده.. وإنما هو جمر فى جوفه!

فقراء

على طريق العزة

إن الخطوة الأولى على طريق الإصلاح.. تبدأ بالفرد نفسه.. والذى تعودً أن يمد يده سائلا جاعلاً همتَه فيما يدخل جوفه.. أو جيبَه.. فكانت قيمته فيما يخرج منه.. كما قال الإمام الشافعى!

لابد أن يغيّر خطته.. ليستطيع المجتمع نجْدته.. منطلقا من إحساس الفقير نفسه بقيمة عزته.. والتى لا يساوم عليها.. ولا يفرط فيها مهما كان البؤس هو الثمنَ المدفوع.

سأل أحد الأغنياء واحدا من الفقراء عن سبب بؤسه فقال:

بُخلُ أمثالِك بماله.. وامتناعُ مثلى عن سؤاله!

ويا له من سهم صائب.. أفاق به الغنى على حقيقة غَفَل عنه.. وهى:

أن ذلك الفقير الذى يره.. يملك فى قلبه ثروة من العزة.. تُزرى بما يحوى جيبه من مال!

لقد كان ذلك الغنى الغافل أحرى بهذ الجواب المسكت.. لأنه سأل عن ظاهرةٍ صنعها هو بُبخله وستغنته..

أما حاتم الطائى.. فلم يكن يُسلّى نفسه بتصفح وجوه الفقراء بحثا عن الأسباب..

ولكنه كان يَبْذل فطرة الكرم فيه.. حتى لا يكون فقرٌ.. ولا كونَ شكوى!

ومن كرمه ما روى:

من أنه قال لابنته التى ورِثت الجود عن أبيها فكانت تنفق مثلَه ذاتَ اليمين وذات الشمال.. قال لها:

يا بنيتى: إن الكريمين إذا اجتمعا على المال أتلفاه!

فإما أن تمسكى.. وإما أن أُمسك..

وكانت النتيجة غلبة الطبع العربى الأبى.. الذى يبذل فطرة.. والذى سرى فى دماء أمتنا.. فكانت له مدرسةٌ فى كل زمان ومكان:

ومن تلاميذ هذه المدرسة الأبية:

ذلك الفلاح البسيط الذى يتورط فى أزمة مالية.. فلا يسأل.. بل ولا يشكو.. رافضا كل أمنية يدفع ثمنها من كرامته.. وذلك فى قوله: جنة.. بمذلة.. لا أرضى بها..

إنه يفضّل الجوع.. بل يؤثر الموت راضيا.. ولا يسأل أحدا.. حتى ولو كان المطلوب هو الجنة.. إنه غير مستعدٍ ليحملَ مِنَّةً من أحد..

وهو هو نفسه المعنى الذى قرره الشاعر الذى يرفض حتى الهدى لو كان الطريق إليه ذليلا:

قال:

وأظمأ إن أبدى لى الماء منةً ... ولو كان لى نـــهرُ المجـــرةِ موردا

ولو كان إدراكُ الهدى بتذلل ... رأيت الهدى: ألا أميلَ إلى الهدى!!

ولـم تكن هذه النماذج الشامخة بَيْضة الديك.. ولكنها ما تزال على الطريق علم الحياة فنَّ العزة.. والشمم:

وكم من أشمٍّ الأنْفِ أرغم أنفَه ... وما كان يوما يُطرق الرأس مرغما

إذا همَّ بالتسآل أمسك بعـــده ... حياء... فلم يفْتح بمسألة فمـــا

احتراف السؤل يعنى موت الرجال.

من بين ما تعيه الذاكرة أن رجلا قَتَل رجلا.. وكان ولىُّ القاتل عند قومه وجيه.. فعرض على ولى القتيل أكثرَ مِنْ دية..ولكنه رفض العَرْض السخى.

ثم طلب دية واحدة.. شريطة أن يجمعها ولى القاتل بنفسه فيسألَ الناس إلحافا.. طائفا على كل بيت فى قبيلته!

ولما تَعَذَّر على الهيْبَةِ والشيْبَةِ أن تتكفَّفَ مَنْ هُم دونه مالا.. وحسبا.. كان لا بد من جمعها من مدينة أخرى.. ثم دفعها إلى ولى القتيل.

وتقول الرواية: إن الولى الغنى.. ولىَّ القاتل شوهد بعد ذلك يتخفى فى ثياب رثَّة.. ثم يسألُ الناس إلحافا.. بعدما ذاق حلاوة السؤال.. ونتيجته المجزية!!

فلما قيل لولى المقتول: لم فعلت هذا؟ قال: لأقتلَه وهو حى.. بالسؤال!!

ولقد كان خطر المسألة حاضرا فى ذهن أسلافنا.. وعندما تعرضُوا لأزمة اقتصادية لم يلجأوا إلى الحل السهل.. بالتمرغ فى الوحل.. عن طريق السؤال وإنما كانت القوةُ الإيمانية لدى رب البيت سبيلا إلى تجاوز الأزمة:

فلقد كان المؤمن يقول لأهل بيته عند هبوب الأزمة: قوموا فصلّوا.. هكذا قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فإذا ظلت الشدة آخذة بخناق الأسرة.. كان الإباء بديلا عن الرزق المحجوب وذلك قول الوالد الأبىِّ:

غُضوا البصر عما يرفل فيه المترفون من البناء والكساء، والغذاء. إزراءً به.. وكسرا لخاطرهم..

وإلا فلو نظرنا إليهم.. لو مددنا أعيننا إلى ما أُترفوا فيه لَكُنَّا محققين لمقصودهم فى إثارتنا!!

وفى ظلِّ من هذا الإباء.. مر الأزمة.. وبسلام.

وإن بقىَ الاعتزار بالله قائما.. فما فاتنا من الدنيا شىء نبكى عليه.. أم إذا تَطَلَّعنا.. وسال لعابُنا لما فى أيدى الآخرين.. فقد يَسلبنا الله تعالى نِعَمَه.. جزاءَ اتجاهنا إلى المخلوق..

قال سفيان بن عيينة رحمه الله:

كنت أوتيت فهمَ القرآن..

فلما قَبِلتُ الصُرَّةَ من أبى جعفر سُلبُ فهم القرآن!

إن قبول الصرة ولو كانت هدية.. ينقل العالم من موقعه العالى.. ليتدحرج هناك فى السفح.. تأثُرا بولى نعمته من البشر..

وعلى كل حال.. فهذا الندم من سفيان رحمه الله ظاهرة صحيحة تَعْنِى أنه فهم الدرس.. ثم ها هو ذا يُهْدِيهِ إلى الأجيال من بعد تبصرة وذكرى.

وإذ تبيح المحكمة الدستورية العليا فى إيطاليا.. إذ تبيح التسوّلَ جاعلة منه حقا مشروعا.

فإن الحديث الشريف يظل فى سمع الكرماء.. نذيرا.. لعله أن يعود بالشاردين.. إلى قواعدهم سالمين.

رجال
لا يساومون على كرامتهم

ربما تعرض الحر لأزمة عصيبة.. تناوشُه سهام الأحداث من كل جانب..

وإنها لتنغرس في جسده.. فيتلقاها متحملا أذاها..

لكن قلبه..وعقله.. كلاهما يظل بإرادته الضامدة بعيدا عن مرمى السهام.. يظل قلبه.. ذاكرا.. شاكرا.. صابرا..

ويظل عقله يسيطر على الأزمة.. فلا ينفلتُ له عيار..

وإنك لتراه.. وقد خرج من نار المحنة ذهبا خالصا:

ونذكر من هذا الطراز.. ذلك العامل.. البسيط:

لقد اتفق معه صاحب العمل على درهم ونصف.. نظير عمله اليومى. فلما أنجز المهمة أعطاه أَجْره..

ويجىء العامل الكادح إلى ربه كدحا ليُنجز لصاحب العمل ما اتُّفق عليه فى اليوم التالى. ثم يعود قرير العين بدرهم ونصف.. هو كل ثروته فى هذه الدنيا..

وفى اليوم الثالث: حس صاحب العمل بأنه أمام عامل: مخلص.. زاهد.. عابد.. مجاهد أنجز فى يوم واحد عمل ثلاثة رجال..

فقرر زيادة الأجر اليومى ليكون ثلاثة دراهم بدل درهم ونصف.. وكانت المفاجأة عندما ردَّ العامل الزيادة.. حيث اعتبرها صدقة.. تَقِفُ به موقفَ الهوان..

مع أن الزيادة: حقٌّ.. ثم هى صادرة عن رض صاحب العمل! لكنه فَضَّل أن يرجع إلى بيته بمزيد من الكرامة.. وإن كان أحوج ما يكون إلى هذه الزيادة؟!

لكن الرواية لم تتم فصولا:

فقد مَرِض هذا العامل يوما.. وحُقَّ للأحرار المجِدِّين فى أعمالهم من أمثاله أن يَهِنَ العظم منهم.

ولما علم صاحب العمل. عرض عليه أن ينقله إلى بيته ليكون تحت إشرافه.

وقبل المريض الوهنان.. ولكن بشروط:

أولا: ألا يُحضِرَ له طعاما إلا إذا طلب.

وثانيا: إذا مات.. يكفّنُه فى ثوبه.

وتأمل عزة النفس التى تحمل الرجال فوق ما يطيق الرجال..

تأمل.. العامل البسيط المريض. لايتخلى عنه إباؤه وهو فى سكرات الموت. وها هو ذا الإباء يعلن عن نفسه عندما يُمْلِى الضيف شروطه على المُضيف..

ألا وإن لفتةَ صاحب العمل الإنسانية لتُذَكِّرنا.. بما كان يلجأ إليه الطيبون من الأغنياء.. الحريصون على كرامة الإنسان.. مأثورين بروح السنة الشريفة والتى كشفت بعضُ رواياتها عن صورة المتصدق المثلى.. والتى قالت فى بعض طرقه:

«حتى لا تعلم شماله.. ما تنفق يمينه».

وهكذا.. وإمعانا فى السرية.. وحرصا على شعر الفاقدين.. يستعمل شماله حتى لا يظنَّ أحد أن أحدا يتصدق على أحد!!

ورحم الله. «مُورقاً العِجْلىَّ» التابعىَّ الجليل:

لقد كان تاجرا.. وكان مع ذلك كريما:

ومن دلائل كرمه أنه لم يُخرج زكاة ماله قط.. حيث لم يَحُلْ عليها الحول أبدا..

ومن إنسانيته أنه كان إذا علم بحاجة رجل.. أن يذهب إليه.

ثم يُعْطِيه قدرا من المال على سبيل الأمانة ليحفظه..

وبعد حين من الدهر.. يعود إليه ليقول له: أنت فى حلٍّ منه.. افعل بالمال كيف تشاء!.

وهكذا: ينسجم تصرف «مورقِ العجلى» مع مبدئه:

لقد كان يتصور نفسه دائما أنه على خشبة فى بحر. يدعو الله تعالى بالنجاة.

نجاته ونجاة الآخرين من الغرق: فى بحور الحرمان. أو بحور الهوان..

من آثار
المروءة

إذا قالت التوراة المحرفة: إن الفقر ظاهرة بشرية أو أبدية. لا تزول.. فإن القرآن المحفوظ يقرر أنه عارض يزول بزوال أسبابه..

وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾**.

وقوله تعالى: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**.

لكن زوال الفقر مشروط بوجود أغنياء.. يجودون.. بل يُؤثِرُون على أنفسهم.. ثم فقراء أعزاءَ: يقابلون ذلك الإيثار.. بالاصطبار على بيع أعزّ ما يملكون.. لتسلم لهم كرامتهم التي بها يعيشون. ولقد كان الشريف المرتضىَ.. مثال هؤلاء الأغنياء.

وكان أبو على القالى.. ممثل هؤلاء الفقراء:

كان لأبي الحسن القالى الأديبِ نسخةٌ من كتاب «الجمهرة» لابْنِ دُريد.

فى غاية الجودة.

فدعتْه الحاجة إلى بيعها.

فاشتراها منه الشريف المرتضى بستين دينارا.

فلم تَصَفَّحها الشريف وجد بها أبياتاً بخط بائعها.. الأديب القالى.

يقول فيها:

أنِسْتُ بها عشرين حولا وبِعتها	لقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها	ولو خلَّدتنى فى السُّجون ديونى
ولكنْ: لِضَعفٍ وافتقار وصبية	مقالةُ مكوى الفؤاد حزين
وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك	كرائمَ من ربٍّ بهن ضنين

فأرجع «المرتضى» النسخة. وترك له الستين دينارا.

أيها الأخوة: إذا كان الكتاب عقلَ الأمة.. فإنه بالنسبة لأديب عالمى كأبى على القالى يكون حياته..

وفى الوقت الذى حاصره المثلث الكئيب: الضعفُ.. والحاجة.. والصبية..

كان الكتاب هو خطَّ الدفاع الأخير.. والذى تخلى عنه مرغما.. فودع به صديقا هو على ما قال الشاعر:

مِلْتُ للكتب وودعت الصحابا لم أجد لى وافيا إلا الكتابا

صاحب إنْ عبته أم لم تعــب ليس بالواجد للصحب عابا

ولم يكن يملك إلا الدموع الغزار.. يسكبه فكانت هذه الأبيات.. أو هذه الآهات..

وما أكثر المطحونين حين تَعُدُّهم..

ولكن أريحية الواجدين تُمارِسُ نشاطها.. حين تقف إلى جانبهم.. لينتصر الاثنان على الحاجة معا:

هذا.. بماله.. وذاك.. بعزته..

تلك العزة التى تُفَرِّط فى كرائم الأموال.. ولا تفرط فى ذرة واحدة من كرامتها..

وهذه النجدة من قِبَل غنىٍّ:

يُدخل السرورَ على المؤمن.. حين يقف إلى جانبه.. ثم يتجاوز مقام العدل.. إلى ذروة الفضل لما استبقى معه الستين دينارا. ومع الكتاب العائد.

وبهذا المزيج من أريحية الواجدين.. وعزة الفاقدين.. انتصر الإسلام على مشكلة الفقر.. فى البيئة القَفْر.. فى صحراء جرداء.. فى واد غير ذى زرع..

لقد هزمه كما قيل - فى عقر داره.

وما زال صالحا للانتصار عليه ليوم وغدا - ومتى فقه الناس سنته تعالى فى

الاجتماع البشرى: فتوكلوا. . ثم باشروا الأسباب.   على ما تقول أم الدرداء رضى الله عنها:

[إن أحدهم يقول: اللهم ارزقنى. وقد علم أن الله لا يُمطر عليه ذهبا. ولا دراهم.

وإنما يرزق بعضَهم من بعض: فمن أعطِىَ شيئا. فليقْبَل:

فإن كان غنيا: فليضَعْه فى ذى الحاجة. وإن كان فقيرا. . فلْيَستَعن به].

من صور
الإيثار

أيهما أثقل فى ميزان حسناتك؟

أن تعطى الفقير ما يحتاج إليه.. أم أن تعطيه ما تحتاج أنت إليه؟

فى الموقف الأول:

قد تعطيه ما يحتاج إليه.. لكن لديك فائض فى جيبك.. فغريزة التملك فى كيانك مشغولة برصيدك.. فلم تتشبث بما تصدَّقتَ به..

وعندئذ فلك أجر الصدقة.. لا أجرُ الإيثار..

أما فى الموقف الثانى.. فغريزة التملك.. مع غريزة الجوع تحديان عزمك على التصدق بما لا تملك سواه..

ومن ثم.. تقفان لك بالمرصاد..

فإذا أنت تجاوزت الغريزة.. وجُدت بحاجتك الضرُورية.

فلك أجر الصدقة.. وأجر الإيثار.. أجر الانتصار.

وهذا ما فعله عبد الله بن عمر رضى لله عنه:

مرض يوما.. فاشتهى سمكة طرية. فجعلوا يلتمسونها له بالمدينة حتى وجده فاشتَروْها له بدرهم ونصف.

ثم شُوِيت.. وحُمِلت إليه على رغيف.

فقام سائل على الباب فقال للغلام: لُفّها برغيفها وادفعها إليه.

فقال الغلام: أصلحك الله!

إنك اشتهيتها منذ كذا.. وكذا يوما.. فلم نجدها.. فلما وجدناها واشتريناها.. أَمَرْتَ أن ندفعها إليه؟ نحن نعطيه ثمنَها.

فقال: لُفَه.. وادفعها إليه.

فقال الغلام للسائل:

هل لك أن تأخذ درهم.. وتدعَ هذه السمكةَ؟

فرضى السائل. وأخذ الدرهم. وردها.

فعاد الغلام وقال لابن عمر: دفعتُ إليه درهم. وأخذتها منه.

فقال له: لُفها وادفعها إليه. ولا تأخذ منه شيئا. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أيُّما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها فى نفسه غفر الله له»**.

ولاحظ أن الموقف هنا صورة.. والصورة أبلغ من ألف كلمة:

ومن بلاغتها ما تشير إليه من دروس منها: صِلةُ الخدم الوثقى برب البيت والتى تمثلت فى سعيه الدءوب حتى حقق أمل سيده فى العثور على ما يشتهيه.

لقد أعطاه سيده حقه من الاحترام. فأدى الخادم واجبه وفاء..

ومن احترام الخادم أنه هنا يناقش فى قضايا البيت..

ويستقلٌّ بإدَارة بعض شئونه حين قرر إعطاء السائل درهما.. فلم يتعود الخادم فى بيت ابن عمر أن يكون تابعا.. محكوما سلبيا.. سلاحه النفاق.. خروج من الأزمات..

ولئن وقف الخادم فى مقام العدل.. فقد كان ابن عمر هناك فى مقام الفضل.. فرأى من مكانه العالى حقئق أكثر منها:

إنه أسهم فى إشباع جائع.. يُحِسّ اليوم أنه ليس وحده.. معه على الطريق عالمٌ من علماء الأمة.. لا يكتفى بالعلم يحلله.. وإنما يضيف إلى العلم.. المالَ.. يبذله..

يبذله طعاماً هو أحوج ما يكون إليه.. محققا بذلك أعلى درجات التأسى برسول الله ﷺ.

لقد كان ابن عمر حفيا بالتأسى به.. تأسيا حمله على أن يصعد المنبر فى غير جُمُعة.. ليتحرك.. وينظر.. وينطق.. كما كان ينطق رسول الله ﷺ..

ثم هو اليوم يضيف إلى هذا عمقَ التأسى بالسنة العملية.. التى قلّ اليوم طالبوها.. وأولى بالمسلمين أن يتنفسوا فيها.

ولا ننسى نصيب الدول من هذه الدروس.. والتى تخطط من أجل القضاء على الفقر لتجعل من العدل.. ثم الفضلِ سبيلها إلى التغلب عليه.. وإنها لواصلة بإذن الله..حين تصدقُ النوايا.. وتصح العزمات.

أهمية قضاء الحوائج:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة..» الحديث.

كما أن الزوجة ـ وهى الصاحب بالجنب ـ تُعرَف عند الفقر..

فكذلك الأصحاب: إنما يعرفون عند الحوائج..وإلا.. فكل الناس فى الرخاء.. أصدقاء..

وجزى الله الشدائد كل خير عرفتُ به عدوى من صديقى.

حدود الواجب:

وليس مهما أن تُقضى الحوائج على ما يشتهى المحتاجون.. وأهم من ذلك أن يَبذل الصديق قُصارى جهده.. ومن هنا قالوا:

[من تحرّى قضاء حاجةٍ.. ولم يُقض قضاؤه على يديه.. فكأنه لم يُقصرٌ فى قضائه].

ومن تمام الواجب أن يكون لِذَوى الجاه حسٌ بصير.. يتحسسون به ذوى الحاجات.. فيبادروا إلى قضاء حاجاتهم قبل أن يَسألوا.وكذلك يفعل الكرام.. لأن ذلك تمامُ صنائع المعروف..

ومن هؤلاء الكرامِ شبيبُ الخطيب والذى ذكّر أولاده يوماً بِمنَهجه فى مدٍّ يد المعونة تبصرة لهم وذكرى فقال: [ورجلٌ جاءنى فى حاجة. وقد رأيتُ السوء فى وجهه من الحياء فبدأتُ بحاجته قبل أن يسألها].

أهمية قضاء الحوائج

ولقد كان قضاء الحوائج قيمةً يتنافس فيها المتنافسون الذين جعلوها من أفضل

العبادات.

قال الحسن رضى الله عنه:

[قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلىّ من اعتكاف شهرين].

وعلى هذا المعنى مضى الشعر الإسلامى الذى طالما تغنى بقيمة الوقوف إلى جنب المستغيث:

يبقى الثنـــاء وتَنْفَدُ الأمـوال ... ولكل دهر دولة ورجـــال

ما نال مَحْمَدَةَ الرجال وشكرَهم ... إلا الصبورُ عليهم المفضـال

وإذا وجب على القادر أن يعطى من جاهه.. أو ماله.. فقد وجب عليه قبل ذلك أن يكون فى موقفه كريما.. حين يوفر على المحتاج ذل السؤال.. فضلا عن الإلحاح..

وإذا كان الأمر كذلك.. فقد وجب على صاحب الحاجة أن يكافئه..فإن لم يستطع.. فعلى الأقل: أن يشكره.

وقبل ذلك عليه أن يأخذ فى اعتباره الالتزامَ بالآداب التى تحفظ على الوجيه حياءه.. وبقاءَه فى الصدارة دائما..وأحيانا يَنوبُ دمع العين عن شكر اللسان.

وقد رَوَوْا فى ذلك: أن رجلا جاء يحيى بنَ طلحة بْنِ عبيد الله..فقال له هب لى شيئا. قال: يا غلام: اعطه ما معك فأعطاه عشرين ألفا فأخذها ليحملَها فثَقُلتْ عليه. فَقَعَد يبكى. فقال يحيى: ما يبكيك.. لعلك استقللتها فأزيدك؟ قال: لا.. والله ما استقللتها. ولكن بكيت على ما تأكل الأرض من كرمك فقال يحيى: هذا الذى قلت لنا.. أكثرُ مما أعطيناك.

لقد أعطى يحيى عطاءَ من لا يخشى الفقر.. ونِعّما هو..وأكرِم به: من خيْرِ خلف.. لخير سلف.. طلحةَ بن عبيد الله رضى الله عنه..

رأى الرجلَ تَخنُقه العبرات من عِظَم هذا الكرم الذى صار به يحيى بَحْراً زاخر بالخير.. ويستصغُر يحيى العشرينَ ألفا.. أمام كلمة باقية قالها السائل..

وبالجميل.. ورد الجميل.. يظل الواجدون.. ذاكرين.. واجبَهم فى

العطاء.. كما يظل الآخذون شاكرين.. هذا العطاء..وبهما معا يظل نهر الخير جاريا..

من آداب صاحب الحاجة:

قضت مشيئة الله تعالى أن يكون فى الناس الواجد والفاقد والقوى والضعيف.. وصاحب الجاه.. ومن يغيب فى زحمة الحياة.

وقضت حكمته سبحانه أن يتعاون الطرفان لتستمر الحياة: فيسخوا الواجد.. ويساعدُ القوى.. ويُعينُ صاحب الجاه..وعلى الطرف الآخر: عنْد الضعيف.. والملهوف: يكون الشاكر: الشكرُ العملى.. بالمكافأة.. أو الشكرُ القوليُّ باللسان.

وليبقى هذا التعاون على البر موصولا.. فقد سن الإسلام آدابا يجب الوفاء بها.. من قِبلَ صاحب الحاجة.. ومَن شُفِّع لقضائها من الوجهاء فى أقوامهم..

وقد أفاض ابن حبان رحمه الله فى كتابه: «روضة العقلاء» فى ذلك فقال: [لا يَجِبُ الإلحاح عند السؤال فى الحوائج: لأن شدة الاجتهاد.. ربما كانت سببا للحرمان والمنع.

والطالب للفلاح: كالضّراب بالقداح: سهم له. وسهم عليه: فإنْ أُعطِىَ وجب عليه الحمد وإن مُنع لزمه الرضا بالقضاء.

ولا يجب السؤال إلا فى ديار لقوم ومنازلِهم.. لا فى المحافلِ والمساجد والملأ:

قال عمر رضى الله عنه: [لا تسألوا الناس فى مجالسهم ومساجدهم. فتُفْحِشُوهم. ولكن: سلوهم فى منازلهم: فمن أعطَى.. أَعْطَى. ومن مَنَع مَنَع].

ولكن واقع الناس يشهد بفاوتهن: فَهُمْ: إما كريم.. وإما لئيم ومن ثم فالْمنَهج السابق لائق بالكرسم الذى قد لا يكون مستعدا لقضاء الحاجة نفسي أو ماليا.. فسؤاله على الملأ إحراج له.. فلنحافظ على شعوره.. ولنُعِنْه على أمر الله بتخيُّر الزمان المناسب.. والمكان المناسب..

أما فيما يتعلق باللئيم فقد قال أبو حاتم:

[فإنه إن سأله فى مجلسه ومسجده. كان ذلك أقضى لحاجته: لأن اللئيم لا يَقْضى الحاجة ديانةً ولا مروءة وإنما يقضيها ـ إذا قضاها ـ طلبا للذكر والمحمَدة بين الناس].

ثم يقول: [على أنى أستحب للعاقل: أن لو دفعه الوقت إلى أكل القِدِّ ـ سيرِ الجلد الذى تخصف به النعال ـ ومصّ الحصى.. ثم صبر عليه. لكان أحرى به من أن يسأل لئيما حاجة: لأن إعطاءَ اللئيم شيْن ومنعه حتْف].

قال الشاعر:

إذا أَعْطَى القليلَ فتى شريفٌ	فإن قليل ما يُعطيك زين
وإن تكن العطية من دنـــىٍّ	فإن كثير ما يعطيك شين

ولا بد من كلمة نهز به ضمائر أناس يُوسعونك لوما وتثريبا لأن حاجتهم لم يقْض قضاؤُها على يديك.. مع أنك فى نظرهم طويل الباع.. نافذ الجاه..

ونسى هؤلاء أنك مجرد واسطة.. شفيع يرجو.. وقد يلح فى الرجاء.. وعندئذ تنتهى مهمته.. تنتهى.. لتبدأ مهمة الوزير أو المدير.. والذى يمسك بيده القلم ليوافق أو يعتذر طبق خطته المحكمة فى تسيير دولاب العمل فى مصلحته..

والحكمة تفرض الصبرَ فى مثل هذه المواقف.. إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.. ثم الدعاءَ إلى الله أن ييسر فرصة أخرى.. أو شفيعا آخر تساعده ظروفه ليحقق الأمنية الغالية.. وإلا.. فإن التذمر نسيانٌ لقدرة الله تعالى وحكمته التى تُمسك بزمام الكون كله.. وما الإنسان إلا آلةٌ مسخرة فى إطار من مشيئته سبحانه ومن هؤلاء الذين غاب فى أذهانهم معنى التوكل ذلك الرجل الذى وقف على الجِسْرِ وهو يقول: اللهم ارزق المسلمين حتى يعطونى.

ولا نملك فى الرد عليه إلا ما رد به من سمعه قائلا له: يا رجل.. تسأل ربك الحَوالة؟

مسئولية قضاء الحاجة:

لقضاء الحاجة ناسها القادرون على تحمل تبعاتها.. ومن هنا تبدأ مسئولية المحتاج الذى يجب أن يقصد المرشّح فعلا لقضاء حاجته. وأحيانا يجيئك التكليف

بالتدخل من قريب أو صديق.. فى حاجة لا تعرف من هى فى قبضته من الموظفين. .بينما تذوب أنت خجلا من ضآلة إمكاناتك. وهكذا تصوُّر الحاجات لأهلها..

ومن هنا أيضا تشير البداية.. إلى النهاية.. التى لا تسر الطالب طبعا.. لأنه أمرٌ بما لا يستطاع.. فضاع الشفيع.. وأضاع..

أرأيت إلى الرجل الذى يغالب الموج.. مشرفا على الغرق.. لأنه لا يعرف السباحة.. أرأيت؟ كيف يحمل هذا العاجزُ على ظهره آخر.. إنه كما قال أجدادنا: جئتك يا عبد المعين لتعيننى.. فإذا أنت فى حاجة إلى معين. وسوف يَغْرَق الاثنان معا.

من أجل ذلك حرص العلماء ـ ومنهم ابن حبان ـ على رسم المنهج السليم بين يدى صاحب الحاجة حتى يرزقه الله تعالى نعمة التوفيق إلى الرجل القادر على إنجاز مهمته..

قال رحمه الله: لايجب للعاقل أن يتوسل فى قضاء حاجته: بالعدو. ولا بالأحمق ولا بالفاسق. لا بالكذاب. ،ولا بمن له عند المسئول طُعْمة أى محتاج إلى عطائه.

ولا يجب أن يجعل حاجتين فى حاجة.. ولا يُظهر شدة الحرص على اقتضاء حاجته. فإن الكريم يكفْيه العلم بالحاجة. دون المطالبة والاقتضاء.

قال الشاعر:

وإذا طلبت إلى كريم حاجة	فى حضوره يكفيك والتسليم
فإذا رآك مُسلِّماً عرف الذى	حَمَّلتَه فكأنه ملـــــــــــزوم

ولا يَنْسى أبو حاتم أن يذكر القادرين من ذوى الجاه بمسئولياتهم تجاه الراغبين إليهم فقال:

ومن سئل فليْبذل. لأن مال المرء نصفان: له ما قَدَّم. ولوارثه ما خلّف. وأقرب الأشياء فى الدنيا زوالا: المال. والوَلاية. والتعاهُد للصنيعة بالتحفظ عليها أحسن من ابتدائها ومن غرس غِراساً فلا يَضنَنْ بالنفقَة على تربيته.

ونقول نحن مِنْ واقع تجربتنا: إذا لم تستطع تحقيق أمل الطامع فى معروفك فالبديل هو: حسن الاعتذار.

لقد ذهب الصديق راجياً صديقه أن يهيئ لولده عملا . حتى لا يصبح هملا أو حِمْلا يئود ظهره. . وسكت صاحب الجاه. . وكان عليه أن يعتذر لأنه بحث. . بل اجتهد فلم يجد. . لكنه ضنّ . حتى بالاعتذار!! ويعنى ذلك أنه غيْر حاضر فى ذهنه بالمرة. وقد يجاملك بالمديح فى المجالس ولكنه التراب يُخْفى به الجمرة المتقدة هناك فى قلبك.

وقد يدعوك إلى فرح عنده. فإذا اعتذرت. مال واحتجب. . وادعى الغضب. ليت هاجرى يشرح السبب!!

وأحياناً: نرضى بالظلم . . ثم لا يرضى الظلم بنا. . وما تزال الليالى حبالى بالعجائب!! أما فيما يتعلق بمن وهبوا حياتهم لخدمة الناس.

فلطالما نصحتُ بعض الوجهاء ممن يُجرى الله على أيديهم الخير. ألا يغرقوا أنفسهم فى المصالح الفردية على أهميتها؛ لأن رضاء الأفراد غاية لا تدرك. . وقد يُنجِز حاجة لواحد من ألف. . من أعوانك. . فتكسب واحداً. وتخسرَ ألفا. . إلاَّ هذا الواحد. . والذى سوف يقدُرُك. وإلى حين.

والحكمة تفرض الاتجاه بالدرجة الأولى - إلى الحاجات العامة.

بناء مستشفى. . مدرسة. . ملجأ للأيتام.

فإن فعلت. . فبها. وإلا . . فسوف يلومك الناس. . وأول الائمين مَنْ قَضَيْتَ حاجاتهم. . وربما صار الأمر على ما قيل: إن الذين ترونهم إخوانكم - يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا.

تلقى التابعى الجليل «ابن شبرمة» تلقى هدية من صاحب له كان قد قضى حاجة له.

فسأل المهْدِى. . ولم هذه الهدية؟ فقال نظير معروفك

فقال ابن شبرمة خذ هديتك عافاك الله! فإنك إذا سألت أخاك حاجه لم

يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبرٌ عليه أربع تكبيرات وعُدَّه فى الموتى!!

إذا نهض القادر من الناس لِيشُدَّ عَضدَ أخيه فى محنته.. وإذا كان رد الفعل عرفاناً بالجميل.. وإحساسا لا يبرِّدُ بضرورة أن ينال هذا القادر جزاء عمله.

إذا حدث هذا فإن قلبا كبيراً واحدا ينتظم مجتمعا هذا شأنه قلباً فى جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

ويعنى ذلك: رسوخ قاعدة التَّعاون على البر والتقوى.. بين القادرين والعاجزين.. الواجدين والفاقدين. تلك القيمة التى تؤدِّى وظيفتها فى التقريب بين طوائف الأمة.. تقريباً لا تَبْقَى معه أنانية.. وإنما هو الإيثار..

فإذا تَرقَّتْ الأمة فى سلم الكمال.. فرض صانع الجميل أن يأخذ عليه أجراً أو شكراً.. لأنه ما عمله هو الواجب.. ولا شكر على واجب. فقد تهيَّأت الأمة لتأخذ مكانها فى طليعة الركب.

وحين تُمزِّق الأنانية أمماً أخرى.. تتدافع بالمناكب على حطام الدنيا فإن أمة الإسلام تظل فى قمتها العالية.. شاهدة على الناس.

وإنها لكذلك ما بقى فيها ذلك الطراز الفريد.. من الباذلين.. والشاكرين على سواء..ومشهد اليوم يُمدُّنا بدروس مفيدة:

فقد تطوْع «ابن شبرمة» رحمه الله بخدمة أداها لأخيه المسلم ولما أراد أخوه أن يرد الجميل هدية تساءل: ولم هذه الهدية:

ومعنى ذلك أنه:نسى ما قدّم من عمل:لأن حياته اليومية سلسلة من الخدمات.. ينسى بعضها بعضاً وهمته أن يفعل.. ولا يُهِمه النتائج.

وهكذا الطيبون من الناس:يصنعون المعروف.. ثم يستقلونه.. بل ينسَوْنه..

ولا يدخرونه ليكون فى المستقبل رصيداً ليوم الانتخاب؟!!

ومعناه أيضاً:أن المسلم المخدوم.. عَدَّ المعروف عظيماً.. فما نَسيَه حتى يكافئه ـ ونكتملُ الصورة حين يَزْهَد المُعطى.. فيما أعطى.. لأنه قدّمه لله تعالى.

وحين يُصرُّ الآخد على الشكر طاعة للإسلام الذى نبه على ضرورة الشكر

تحريضا للمعطى على الاستمرار فى العطاء.

ويأبى ابن شبرمه إلا أن يعود الرجل بهديته.. وعلى الهدية مزيد من دعاء جَبَرَ به خاطره حين قال: خذ هديتك عافاك الله.. راجعاً بقراره هذا إلى الشريعة التى لا تحمِّل المسلم مسئولية قضاء الحاجة فقط بل - كما تقول الرواية - ضرورة أن يُجهد المسلم نفسه لقضائها.

فإذا لم يفعل فإنه أنانى:. أماتَتْه الأنانية التى وقفت به وحيدا بلا جذور بلا أمة ينتسب إليها.

إنه يعيش لنفسه وما عاش من عاش لنفسه فقط.

ولقد بلغت هذه الروح المؤْثرة ذروتها فى أمتنا حتى قبل الإسلام:

وها هو ذام حاتم الطائى.. يرى أسيراً.. يرسف فى القيد. ولم تتحمل أريحته قسوة المشهد.. فوضع نفسه مكانه فى القيد. مع أنه لم يكن يعرفه! فلما علم أهل الأسير بذلك.. فَدوة.. شاكرين.

ومعنى ذلك أن حاتماً لما لم يجد ما يفديه به.. فداه بنفسه والجود بالنفس أسمى غاية الجود.

ولما جاء الإسلام أبقى على الطريق مفتوحا. لِمْن أراد أن يصل إلى الكمال.. إلى القمة. وهى قمة قد لا يصل إليها الناس. مهما اجتهدوا. لكنهم بالمحاولة. سيقتربون منها كلما اجتهدوا.

وأخيراً: ولا ننسى أهمية التصرف الحكيم والمنطق القويم.. وكيف يقضى به الله تعالى حاجة اللهيف:

دخل الهذيل بن زقر على يزيد بن المهلب فى حَمَالات لزمته فقال: أيها الأمير: قد عظم شأنك أن يستعان بك أو عليك ولست تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنت أكبر منه. وليس العجب من أن تفعل. بل العجب من ألا تفعل. فقضى يزيد حاجته.

من صور التعاون على البر

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه[1]. عن رسول الله ﷺ **«أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار.**

فقال: ائتنى بالشهداء أشهدُهم.فقال: كفى بالله شهيداً.

قال: ائتنى بالكفيل. قال: كفى بالله كيلا. قال: صدقت.

فدفعها إليه على أجل مسمى.فخرج فى البحر فقضى حاجته. ثم التمس مَرْكبًا يركبها يَقْدَمُ عليه.للأجل الذى أجّله. فلم يجد مركبا.فأخذ خشبة نقرها فأدخل فيها ألف دينار. وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجّج موضعها. ثم أتى بها إلى البحر فقال:

اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلاناً ألف دينار. وسألنى كفيلا قلت: كفى بالله كفيلاً فرضى بك. وسألنى شهيداً فقلت: كفى بالله شهيدا. فرضى بذلك.

وإنى جَهَدْتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها فرمى بها فى البحر حتى ولَجتَ فيه.ثم انصرف. وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً جاء بما له. فإذا الخشبة التى بها المال. فأخذها لأهله حطبا. فلما نشرها وجد فيها المال. والصحيفة. ثم قدم الذى كان أسلفه. فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك. فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلىّ بشئ؟ قالَ:أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى أتيتُ فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة. فانصرف بالألف دينار راشدا».

تمهيـــــد:

تأخذ القصة دورها المؤثر.. فى تحريض الناس على الفضيلة.. لأنها تصور المشاهد كأنها حية ترى.. ورب صورة أبلغ من ألف كلمة!.

والأبطال فيها يتحركون بين أيدينا بكل مالهم. وما عليهم. على نحو يثير

غريزة حب الاستطلاع التى تصحو لتمارس وظيفتها فى متابعة المشاهد.. والاندماج فيها.. اندماجا يُسْلِم المستمع فى النهاية إلى الاعتبار. ولهذا كانت سلاحا من أمضى أسلحة الدعوة. يستثمره ﷺ لحسابها.

والقصة هنا حافلة بالدروس والعبر. وقبل أن نخوض فيها متأملين نتساءل: ما هى أهمية القرض - وهو موضوع قصتنا. بالنسبة للصدقة.. وكلاهما بذل للمال.. لمحتاج إليه؟

إن القرض ليأخذ أهميته القصوى.. وذلك واضح من قوله ﷺ:

«رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها.. والقرض بثمانية عشر».

ذلك بأن الصدقة عطاء غير مردود تبذله زكاة.. أو تطوعاً لتنتقل ملكيته إلى غيرك.. ثم تنتهى مهمتك.

أما القرض فهو عطاء لا بد من رده.. وفى موعده.. فإذا تصورت مدينا معسرا قد لا تسعفه إمكاناته برد الدين.. وقد يلجأ إلى المراوغة فى رده.. حكمت بأن الإقراض للوهلة الأولى مجازفة غير محسوبة النتائج لا يلقاها إلا الذين صبروا.. وأحسوا بحاجة الآخرين.

من أجل ذلك كان التحريض على الإقراض والتسامح فيه.. وإنظار المعسر.. كان سمة من سمات الإسلام. هذا أول.

وثانياً: إن طالب الصدقة قد يكون من ورائه رصيد.. أما المقترض فلا يملك هذا الرصيد.. ومن ثم كان الضغط عليه شديداً.

ثم إنه من الصعب عليك أن تمد يدك سائلا.. صدقة.. أو قرضاً.

٢- فإذا كنت عربياً فالأمر أصعب: لأن العربى أبىّ بطبعه.. ومن إبائه أنه يكره السؤال حتى فى أدنى مستوياته:

فقد كان العربى يسقط سوطه وهو على ظهر بعيره.. فينزلُ ليأخذه.. ولا

---

(١) كتاب الكفالة ج٤/٤٦٩. وفى كتاب الاستئذان ج١١/٤٨.

يسأل صاحبه أن يناوله.

٣ـ فإذا كنت مع ذلك مسلماً حراً.. فإن السؤال يصبح فى حسِّك مشكلة.. وبخاصة فى مجتمع، كالمجتمع الإسرائيلى الجامد الكانز لا تجدُ فيه من حولك: إلا حاسداً على نعمة أو شامتا فى نكبة.

ولكن الحياة قد تفرض على الحر أن يطلب.. من أجل صغار.. أو تجارة تشرف على البوار. وإذن.. فلابد من القرض. ولكن.. ممن يكون القرض. من حرٍّ مثلك: يُقدِّرُ ظروفك.. وليس هو ذلك اللئيم الذى يستغل الفرصة ليضرب ضربته.

من فقه الحديث:

والحديث الشريف فى جملته يؤكد على حقيقة يجب أن يعيها كل دائن وكلُّ مدين على سواء وهى: أن عطاء الدائن.. ووفاء المدين.. كلاهما يشكلان جبهة واحدة.. تضرب الجشع.. وتقضى على دولة المرابين الذين يعيشون كالطفيليات.. يمتصون دماء الشعب.

وبذلك تتسع دائرة التعاون على البر والتقوى.. اتساعاً يحمل الباذلين على أن يبحثوا بأنفسهم عن المعسرين.. ليعطوهم قبل أن تكفَّهم العزة عن الطلب.. ثم يموتون جوعاً!

من دروس الحديث:

فى موقف الدائن.. والمدين دروس.. وفيما يتعلق بالدائن: رغم أن المجتمع مادى كانز.. لكن وجد فيه صالحون مصلحون بالبذل أحوال أناس محتاجين.

ومن هؤلاء الصالحين المصلحين ذلك الإسرائيلى الذى توسم فيه أخوه خيرا.. فكان عند حسن الظن به.

وهو درس يعلمنا ألا نعمم الحكم وليكن حكمنا موضوعيا فمهما عم الفساد. وطم. فما زال الأمل باقيا فى الإصلاح. على يد أهل الصلاح الذين لا تخلو الحياة منهم أبدا.

٢ـ ولكن لن يَنقصَ هذا الصلاح.. طلب الدائن شاهداً فالمال عزيز عليه أثير لديه.. وهو يخاف فى مثل هذه البيئة الكانزة أن يجازف بعطاء غير مضمون السداد.

بيد أن الرجل لم يسمح لهواجس الخوف أن تَغلَّ يده.. فلا ينقذ أخاه.. ولكنه وقف بها عند الحد الطبيعى.. حين تجاوز هذه الهواجس فأعطاه.

٣ـ على أن طلب الضمان من ناحية أخرى مطلب شرعى.. وقد تأخذنا العزة بالاثم أحياناً. فنغضب ممن يطلبون منا ورقة تضمن حق الدائن خوفاً منهم على شخصيّاتهم أن تهتز.. من حيث كان الضمان فى ظنهم سوء ظن بهم.

٤ـ ويلاحظ.. مبالغة فى التوثيق أن الدائن لا يطلب الشاهد فقط لأن الشاهد غير ضامن لو ماطل المدين.. ولكنه يعززه بالكفيل لأن الكفيل ضامن.. لأنه طرف فى القضية.

٥ـ ومن صفات الدائن أنه تقى: ومن مظاهر تقواه.. أنه لم يحرق الخشبة فور تسلمها لكنه فتش فيها. لقد انبعث من قلبه النقى نورٌ كان فرقانا أبان له الطريق فى حفظ الله به المال من الضياع. كما حفظ به الثقة بينه وبين صاحبه أن ينالها سوء.

٦ـ ولاحظ منْ فقيهه: إحساسه بحرج السائل.. فى موقفه الضعيف. لأنه طالبٌ.. غير مطلوب.. ومن ثم أعلنها صريحة.. جابرا خاطره: صدقت!!

وبهذه الشهادة سجل لنفسه أفضل الأعمال وهو: إدخال السرور على المؤمن. وذلك قوله ﷺ: «**أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك سروراً أو تقضى عنه ديناً أو تطعمه خبزاً**»[1].

من إنسانية الدائن

٧ـ إن حساسية موقف المقترض تفرض على الدائن واجباً أثقل من إعطائه القرض وهو جبر خاطره: بالكلمة الطيبة والتصرف الجميل.

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى قضايا الحوائج والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة.

يفهم ذلك من قوله تعالى تحريضاً على أن يكون القرض حسنا.. وليس مجرد قرض يؤدَّى.. وعلى أية صورة يقول تعالى:

﴿إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1].

﴿إن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾[2].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3].

فالقرض منك يقع فى يد الله تعالى قبل أن يقع فى يد المدين وإذن.. فلابد أن تعطره.. بالإحسان.

وإذا كان جزاء المُقرِض مضاعَفًا.. إلى جانب ما يفوز به من غفران ذنوبه.. فإن ذلك يعنى عدم كفاية الجانب المادى ولا بد من رفع روح المقترض المعنوية بما شرع الإسلام من صور الإحسان.

٨ـ وإذا تصورنا الدائن هنا غنيا.. لأنه يملك ألفاً.. يكون من ورائها ألوف فلم يمنعه ذلك كما تقول الرواية من أن يخرج إلى البحر لعل مركبا يجىء بماله!.

ومن حقه أن يكون كذلك.

أولا: لأنه ماله.. اكتسبه بَعَرق جبينه.. كما أشرنا.

وثانياً: إذا عاد إليه ماله.. بقيت نسبة الثقة فى المحتاجين الآخرين باقية فحمله ذلك على مواصلة العطاء.

ثالثا: لقد دخل عليه من الهّم ـ خوفا على ضياع ماله ـ ومن حقه على المدين أن يرد إليه مع الدين جميله حين أنقذه بالقرض من هم الحاجة.

رابعاً: ربما كانت له مصلحة حان وقت انجازها بهذا القرض.. فلسعفه كما اسعفنا.

٩ـ ويلفت النظر ما تحلّى به الدائن من وَرَع منعه من أن يأخذ الدين مرتين، وكان من الممكن أن يأخذه.. وخاصة أن أحداً لم يعلم بالخشبة وما جاء فيها..

---

(١) سورة الحديد آية: ١٨. (٢) سورة التغابن آية: ١٧. (٣) سورة المزمل آية: ٢٠.

بالإضافة إلى أن احتمال ضياع المال فى عرض البحر قائم.. وقوى.. وهو الذى حمل المدين على أن يأتى بالمبلغ مستعداً لدفعه مرة أخرى.

ومن دروس موقف المدين:

أنه لم يكن هناك أجملُ من الدائن فى عطائه... ومن المدين فى وفائه هذا الوفاء الذى بدت مظاهره فيما يلى:

أولا: صَرْف القرض فيما جعل له.. وبسرعة.. قبل أن تأكله نفقة العيال.

وعندما تحقق أمله.. كان همه الأكبر كيف يَردّ الدين وفى الموعد المحدد.. وعليه من الشكر والعرفان برهان؟!!

ومن وفاء المقترض:

التمس المدين مركبا لِيُقَدِّم على الدائن فى نفس الموعد المحدد. وليس هذا فقط بل أنه كما تقول الرواية كرر المحاولة جاهداً وذلك قوله: **«وإنى جَهدْت أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذى له لم أقدر..»**

وقولُه: **«والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بما لك.. فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه..»**.

إن فى ذلك لعبرة لأناس أغنياء .. يسترخصون عزتهم عندما يطَالَبُون وخزائنهم ملأى.

ثم.. وفى الموعد المحدد يطلبونك هاتفيا فى موعد لا تكون فيه هناك فى بيتك. وقد يشاهدونك فى الطريق.. ثم يطلبونك فى نفس اللحظة لِيجِدُوا لأيمانهم المغلظة مُتكأ!! وأولئكم هم الأغنياء الفقراء وما هم بخارجين من النار:

نار الشح الذى سول لهم فأملى لهم فباعوا الكرامة وآثروا المال.. الذى أذل أعناق الرجال.

وإنك لترى معنى التوكل باديا فى شخصية المدين على أوفى ما يكون..وذلك واضح من إرسال الرسالة عبر موج كالجبال واثقا أن أمانة الله تعالى لا تضيع..ثم هو فى نفس الوقت يعطى التوكل معناه الحقيقى:

أ ـ فهو يأخذ بالأسباب فيلجأ إلى خشبة من خصائصها أن تطفو فوق سطح الماء.

ب ـ ثم نَقَرها ليجعل للمال فى النُّقْرة مرقدا ومستقرا.

جـ ـ وليس هذا فقط بل زججها.. نقحها ـ سواها.. مبالغةً فى قرارها. وتمكنها وصدق الله العظيم: ﴿إن الله على كل شىء وكيل﴾ عليم بكل شىء قدير مدبر له .. حكيم فى تدبيره.. وإذن هو حسبنا أما البشر فلا يعلمون فلا يدرون فليسوا حكماء.

وأهم من سداد الدين أنه أرسل مع المال خطاباً رقيقاً يعبر فيه عن شكره وامتنانه لصاحب اليد وولى النعمة.

لقد رد الجميل.. جميلا لإسرائيلىُ ستره يوما فى مجتمع فضوح وكان هو.. ومعه الدائن شهادة إلهية تشجب ما يزعمه الملحدون من أن الإنسان ابن بيئته.

فها هو ذا العطاء.. والوفاء.. يفرضان وجودها فى شخصين صالحين.. انتصرا بالعقيدة على البيئة الكانزة فكانا فى التعامل معها فاعلين، ولم يكونا منفعلين.

أما بعد: فإن الحاجة ليست عيباً وإنما هى ظرف طارئ.

فينبغى أن نتجاوزه: بالعطاء الجزيل.. ثم بالرد الجميل.

لقد تراكمت الديون على الفلاح. عندما لم تعط زراعته ما كانت يؤمل من محصول.. وكان الحل الإسلامى أن تَصَدَّق عليه الصحابة رضوان الله عليهم بما يجبر كسْرَه.

ولكن ذلك أيضا لم يَف بديون الرجل..

فماذا فعل؟ طلب من الدائنين.. أن يُنظروه أو يسامحوه فسامحوه.

المهم: أن يظل الدين همّا فى عقل الدائن وقلبه. وأن يحسَّ الدائن بأن حقه محفوظ. وهو آت لا ريب فيه.. فمن.. أعطى واتقى على هذا النحو.. ومن ضمن الوفاء هكذا. . ﴿**فأولئك تحروا رشدا**﴾.

من أسرار البلاء

قبل حديث «أصحاب الصخرة»

رأيت إثبات هذه الصفحات تمهيداً .. يكشف عن بعض أسرار البلاء .. ليجيء حديث أصحاب الصخرة دليلا على الطريق ينادى الحائرين ..أن يضعوا خطاهم على طريق الوصول

بسم الله الرحمن الرحيم

يقولون إن الناس فى العافية سواء. . فإذا نزل البلاء . . اختلفوا !!

أجل: فما دام الناس من حولك: آمنين فى أسرابهم. أصحاء فى أبدانهم. ميسرا لهم فى أرزاقهم. . ما داموا كذلك. . فمن الصعب عليك أن تعرف الراشد. . من الأرشد. . والردىء من الأردأ. . والتقى. . من الغوى. . وإلى هذا المعنى يرشدنا الإمام على رضى الله عنه عندما سئل عن موقف الناس منه فى محنته فقال: إذا أقبلت الدنيا . فكل الناس أصدقاء. .

ونقول نحن: وعندما تدبر الدنيا فإنهم على ما يقول الشاعر:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

وقول الآخر:

وما أكثر الإخوان حين تعدهم   ولكنهم فى النائبات قليل. .

وهكذا الدنيا: قد تغطى بالغنى. . عيوب الغنى بينما تخفى مزايا الفقير. . بالفقر !!

وإذن فلابد من البلاء . يهز الله تعالى به هذا القناع المزيف. ليبدو الغنى برذائله. . والفقير بفضائله.

نعمة البلاء:

من أجل ذلك كان لابد من البلاء. ليكون الامتحان الذى يميز به الله الخبيث من الطيب . والذى يمتحن الله تعالى به عباده:

هل يصبرون على البلاء . هل يثبتون على الطاعة. . هل يسلمون بحكمته سبحانه وتعالى؟

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى

﴿فاذْكُرُوني أذكُرْكُم واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا

بْالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١]

ثم نقرأ قوله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٢].

تأملات فى آيات سورة البقرة

الأمر بالذكر وما يثمره من الشكر أمر بعبادة الله تعالى.. ولا تتم العبادة إلا بالصبر والصلاة.. بالإضافة إلى أهمية الاستعانة بهما فى دفع ما يعترض المسلم من صعاب.. فإذا تم للمسلم ذلك.. استنزل معية الله تعالى والتى: تنجيه مما ينوب من الخطوب.. ثم يقتحم الأهوال ولو كانت مثل الجبال.

أهمية الصبر:

الصبر قهر للنفس على تحمل المكاره.. وتخطى العقبات.. وبلا جزع. ومن تعود ذلك صلبت إرادتهُ التى تصير بالمران مهيأة لتقبل الصعاب كأنها شىء تألفه.. فلا تبذل فى التّصدّى لها مجهودا يذكر.

ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. ولأنها كانت مفزع الرسول ﷺ كلما حز به أمر.. فهى التى تقف مع الصبر تشد من أزر الإنسان فى محنته.

ويظل الصبر سيد الموقف.. حيث يعلل تعالى للصبر.. ولا يعلل للصلاة.. حين يقول سبحانه: **﴿إن الله مع الصابرين﴾** ولم يقل مع المصلين. ذلك بأن الصلاة أجل مطلوب لدى المسلم..فلا نقاش فى أهميتها وضرورتها..

أما الصبر.. وهو الكأس المر.. فكان لا بد من التحريض عليه .. بقوله تعالى: **﴿إن الله مع الصابرين﴾**.

---

(١) البقرة ١٥٢ـ ١٥٧ (٢) آل عمران ١٨٦

[معية الله تعالى]:

ومعية الله تعالى على قسمين ـ كما يقول المفسرون :

أحدهما: معية عامة: وهى المعية بالعلم والقدرة. وهذه معية عامة فى حق كل أحد.

والثانى: معية خاصة: وهى المعية بالنصر. وهذه خاصة بالمتقين. والمحسنين . ولذلك قال: **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾**.

المسارعون فى الصبر :

وقد ظلت قضية الصبر فى الفكر الإسلامى مجالا من مجالات التنافس بين المسلمين. . ومقياسا للتفاضل:

وقد تساءل علماؤنا عن أيهما أفضل: الغنى الشاكر . . أم الفقير الصابر . .

قال قوم: الغنى الشاكر أفضل.

وقال آخرون: بل الفقير الصابر.

وأنا أقول: والفقير الشاكر . . أفضل من الاثنين !!

ونذكر هنا ذلك الحوار الخاطف بين ابن حزم . . وواحد من أقرانه من العلماء الفقراء الذى قال لابن حزم يوما: أنا أفضل منك: لأننى كتبت ما كتبت . . وأنا فقير وأنت كتبت ما كتبت . . وأنت غنى ؟!

فقال له ابن حزم: أنت كتبت . . لتكون غنيا مثلى . . وأنا كتبت . . لوجه الله تعالى !!

الصبر على الواقع:

والآية الكريمة تشير إلى أهمية الصبر على ما وقع من المصائب فعلا . . يشير إلى ذلك ما روى فى سبب نزول الآية التالية **﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات..﴾** وأنها نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين . . (وكان الناس يقولون لمن قتل فى سبيل الله: مات فلان . . وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها . فأنزل الله هذه الآية تصحيحا للمفاهيم . . ثم ردا على البلبلة التى أحدثها المنافقون والمشركون

بقولهم: (إن الناس يقتلون أنفسهم ظلما لمرضاة محمد من غير فائدة).

الصبر على المتوقع من المصائب:

لكن رحم الحياة حافل بالمفاجآت والمصائب.. وكان لابد من تحصين المسلمين ضد هذه المفاجآت حتى لا تأخذهم على غرة.

وذلك قوله تعالى:.

﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف ..﴾ الآية.

ويطمئنهم الحق تعالى.. بأن ما يصيبهم من شىء.. شىء ضئيل.. والمصيبة مهما جلت.. فعند الله أعظم منها..

وإذن فأنتم مشمولون دائما برحمة الله تعالى.. والتى لا تتخلى عنكم لحظة من زمان..

فاستمروا صابرين محتسبين .. فائزين بصلوات من ربكم ورحمة وما دمتم بالصبر والصلاة متعرضين لها فأنتم جديرون بها.

[تأملات فى آية سورة آل عمران]

فى آيات سورة البقرة نسب البلاء إلى الله تعالى.. وفى ذلك من الإيناس ما فيه.

فما دام الله تعالى هو المبتلى.. فمن السهل على المصاب أن يتقبل القضاء راضيا..

ومن فلسفة المسلم عندئذ أن يستحضر القاعدة القائلة:

إذا تحققت أمانيك.. زادت متاعبك..وإذا لم تتحقق.. فقد خفف الله عنك..خفف عنك مسئولية التقصير فى توظيفها.. وفى شكرها. وتلاحظ فى الآيات الكريمة هنا جوا من الإيناس.. منته بالمسلم إلى وصل قلبه بالله تعالى.. ثم الوصول إلى مرفأ الهدى.

أما فى سورة آل عمران فإن الله تعالى يقول: ﴿لتبلون..﴾

فالفعل هنا مبنى للمجهول.. ومن معانيه أن يكون البلاء واقعا [illegible]

مخلوق..بدليل قوله تعالى فى نفس الآية: **﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب..﴾**

وإذن .. فقد تطلب الأمر التأكيد على أهمية الصبر. بل المصابرة إزاء غدر يأتيك من قبل المخلوق..

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك بقوله تعالى: **﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**

وهو التأكيد الذى لم يستدعه السياق فى سورة البقرة.

بعض الناس اليوم:

إذا كان هناك من يسلم وجهه لله تعالى راضيا بقضائه .. فإن هناك نماذج منهم أتعبوا أنفسهم لسببين :

١ـ عندما يحاولون البحث عن حكمة البلاء.. فيضلون.

٢ـ ومنهم من تنهار قواه فيسلم زمامه لليأس..

ونقول للباحثين الضالين ماقاله المربون: إنه الغرور الذى يحمل على الشطط. ومحاولة فهم العلة فى كل حكم. وكل حادث.

ولكن للعقل حدودا ينبغى ألا يتجاوزها..وعليه أن يعود نفسه ـ أحيانا على الأقل ـ ليرفع الراية البيضاء مستسلما لحكم الله تعالى. وإلا: فماذا يفعل العقل وحده إزاء ما قرره الشرع الحكيم مما لا يدخل فى نطقه. مثل:

أ ـ الرجل أقوى : والمرأة أضعف.. ومع ذلك فلها فى الميراث سهم. وله سهمان.

ب ـ ثم هى تقضى ما عليها من صيام .. ولا تقضى الصلاة .. مع أن الصلاة أهم من الصيام..

جـ ـ والبول أنجس من المنى ..

ولكن .. فى الأول الوضوء .. وفى الثانى الغسل..وإذن .. فلنترك الامر لله تعالى الذى يحكم بالأمر لا تدرى له سببا.. وله فى حكمته تعالى ألف سبب

أما اليائسون فلهم منطق يمليه القنوط من رحمته تعالى .. فتسمع أحدهم يقول لك: هذه مثل عليا.. عاشت فى الزمن الغابر.. ولم تر هذا الزمن الأغبر!!

ثم يفقدون الثقة بكل شىء.. حين يقول قائلهم معبرا عن فساد الزمان قائلا: ثلاثة ليسوا من القرن العشرين:

موظف لا يرتشى.

وأجير يقوم بواجبه..

وواعظ يعمل بما يقول..

وهكذا .. وبجرة قلم .. يشطبون على نماذج طيبة تعمر الحياة اليوم.. وإلا فما أكثر العاملين الشرفاء الأتقياء .. والذين تزداد بهم الدواوين .. وتزهو بهم المجالس..

فلسفة المعرى:

ولكنها فلسفة المعرى المتشائمة.. الهاربة من مواجهة المصاعب.

والذى عبّر عنها بقوله:

قلّ الثقات.. فما أدرى بمن أثق لم يبق فى الناس إلا الزور والملق.

ونحن مع القرآن الكريم والذى علمنا الموضوعية فى الحكم على الناس وعلى الأحداث..

القرآن الذى كان قوله فضلا وحكمه عدلا. حين قسم الناس إلى مستويات.. لا تخلو منها الحياة يوما..وذلك قوله تعالى:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1].

فإذا كان فى الحياة صاحب شر لا يسلم من شره أحد.. وإذا ضعف جاء الشر بسببه.. فإن الخير ما زال يعمر الحياة.. فلنقبل عليه.. مشوقين إليه.. مسارعين فيه.

---

(١) فاطر: .

من هدى النبوة:

سمع ﷺ رجلا يدعو ربه قائلا: اللهم إنى أسألك الصبر..

فقال له: «فاسأله العافية!»

ومعنى ذلك: أن سؤال الصبر يعنى استدعاء البلاء أولا.. ثم الصبر عليه.. فأرشده ﷺ أن يسأل العافية ابتداء.

وهذا الرجل مقرون بزميله الذى دعا ربه قائلا:

اللهم إنك لم تعطنى مالا.. فاعطنى من البلاء ما أصبر عليه.. إن البلاء وإن كان قدر الإنسان.. لكنه لا يكون بعض أمانينا. وليته سأل ربه العافية ابتداء..

فإذا تمت لديه نعمة العافية سخرها لخدمة الحياة والأحياء.. فكان له من الأجر ما يساوى ملء الأرض ذهبا!.. وليت شعرى: هل ضمن هذا الرجل أن ينجح فى ابتلاء عافاه الله منه؟ لقد كان الفضل عميق الفهم عندما قال: اللهم لا تبلنا.. فإنك إن بلوتنا فضحتنا.. وهتكت أستارنا وعذبتنا..

ولكنها النظرة التشاؤمية المعرية التى سولت لشاعر يائس أن يؤذن فى الناس قائلا..

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض تنم خاليا من الأوصاب.

تلك أم أحـنى عليك من الأم التى خـلفتك للأوصـــاب.

لا تخف.. فالممات ليس بماح منك إلا ما خلفته من عذاب.

وحـياة المـرء اغتراب فـإن مـات فقد عـاد سالما للتراب.

ونقول: ما عاد سالما إلى التراب من عاد إليه خالى الوفاض إلا من هذا اليأس القاتل.. وخير الزاد هو ذلك الأمل فى الله تعالى..

الأمل الذى قال عنه الحكماء: إن الأمل هو: ذلك اللا شىء.. والذى تملك به كل شىء؟!!

سبيل الخروج من الأزمة

عن عبد الله بن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«انطلق ثلاثة نفر.. ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه.

فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار.

فقالوا: إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران. وكنت لا أغْبُق قبلهما ـ شرب اللبن فى العشى) أهلا ولا مالا. فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أُرح عليهما حتى ناما. [أى لم أرجع إليهما ـ.

فحلبت لهم غبُوقهما. فوجدتهما نائمين. فكرهت أن أوقظهما. وأن أغْبَقَ قبلهما أهلا أو مالا. فلبثت ـ والقدح على يدى ـ أنتظر استيقاظهما حتى بَرِق الفجر والصبية يتضاغَوْن عند قدمى. ـ أى من الجوع ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك. ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ. فأردتها على نفسها. فامتنعت منى. حتى ألمت بها سنة من السنين ـ افتقرت بعد غنى ـ فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها. ففعلت. حتى إذا قدرت عليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه.

فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة. غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم إلا رجلا واحدا ترك الذى له وذهب. فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال. فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله: أدِّ إلىّ أجرى. فقلت: كلٌ ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر

والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزىء بك! فأخذه كله فاستاقه. فلم يترك منه شيئا.اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك. فافرُج ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[1]

تمهيـــــد:

هذه التربة الخصبة.. وهذا الماء.. والهواء.. والضياء.. كل هذه العناصر تتلاقى..ثم تتلاقح..متكاملة.. لتكون فى النهاية هذا النبات..وهذا الظل.. وذلك الثمر..

وهكذا. فى دنيا الناس: ستتلاقى مجموعة من القيم:

قيم: الإخلاص.. والتواضع.. والتعاون على البر.. ثم صلة الرحم.. والعفة والعدل.. تتلاقى كلها فى قلوب فريق من المؤمنين.. ثم تتلاقح.. وتتكامل لتكون في نهاية المطاف غوث اللهيف.. الذى تتجاوز به الأمة محنتها.. خارجة من ضيق الدنيا.. إلى سعتها.

دارت هذه الخواطر فى نفسى.. وأنا أطالع هذا الحديث الشريف..

والذى جمع هذه الطاقة من فضائل النفس.. والتى كشف الله بها الغمة.. الأمر الذى يجعل من تأمل الحديث الشريف فرصة.. تراجع فيها الأمة حساباتها مع نفسها.. فلعلها أن تأخذ سبيلها فى ظل هذه القيم.. خارجة من ضيق المدّخل.. إلى حيث السعة.. والنور.. والحياة.

وسوف تكون لنا حيال الحديث الشريف وقفتان:

أما الأولى:

فوقفة عامة نستجلى بها بعض الدروس العامة.. من رفقة الخير هذه..

وأما الثانية:

فسوف نتأمل فيها موقف كل رجل على حدة.. وكيف وصل بفضيلته إلى أرفع مستوياتها.. والتى جعلت من سلائق: البر.. والعفة.. والعدل.. مستراد الآمال.. فى قلب كل أمة تريد لنفسها الخلاص.

---

(١) متفق عليه.

سمات عامة

مجاهدون بلا سلاح

هؤلاء مجموعة من الشباب.. خرجوا مجاهدين فى سبيل الله..خرجوا من المجتمع.. ولم يخرجوا عليه؟!!

خرجوا منه.. ليعودوا إليه بعد حين.. على جناحين من شوق وحنين.. إلى السكينة والأمن والقرار.

وصحيح أنهم لم يكونوا يحملون سلاحا.. ولكن كان فى قلوبهم ما هو أمضى من كل سلاح.. هو تلك المنظومة من الأخلاق الحميدة المجيدة.. والتى نحاول تجليتها فيما يلى:

مواجهة الخطر وليس الفرار منه

إن لحظة الخطر لم تفرقهم.. بل إنها على العكس: جمعتهم على كلمة سواء:

لقد كان من الممكن فى خضم الأزمة أن يتلاوموا.. وأن يبددوا بالتلاوم طاقاتهم فيما لا يجدى.. وسوف تفرّ فرصة الخلاص من بين أيديهم.. ثم لا تعود..

ولكن هؤلاء الراشدين من الشباب قد ضَنُّوا بطاقاتهم وأوقاتهم أن تبذل فى التلاوم العقيم..

لقد رصدوا ما بقى من طاقاتهم فى البحث عن الحل العملى للخروج من الأزمة بسلام.. أو على الأقل.. بأيسر الخسائر.. وراجعين إلى أنفسهم المسئولة أساسا عن نتائج أعمالهم..

فلما فتشوا فيها.. وجدوها حافلة بهذه الطاقة من من فضائل البر.. والإخلاص.. والعفة.. والعدل..

فاستنزلوا الفرج بهذا الزاد المبارك من أعمال الخير.

لقد كانوا شبابا أذكياء.. وقبل ذلك كانوا أتقياء.. فاستحقوا النجاة بالفطنة والتقوى:

إن لله عبـادا فُـطُـنـا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها.. فلما علموا	أنهـا ليست لحىٍّ وطنـا
جعلوها لجـة واتخـذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

وهكذا.. وفى الوقت الذى يبدد فيه الكسالى طاقاتهم فى محاولة التنصل من المسئولية.. وإلقائها على الآخرين.. يتفق هؤلاء على أن يواجهوا الخطر معا.. بما يملكون من زاد ليوم الميعاد.

العزيمة.. ثم التوكل

فى محاولة الإنسان الوصول إلى هدفه.. عليه أن يدرس القضية دراسة مستفيضة.. ثم يتخذ بشأنها قراره.. **﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾**.

توكل على الله.. وامض بسبيلك.. بلا تردد:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

وهكذا فعل هؤلاء الشباب:

فإذ تقول رواية أنهم يمشون.. فقد بينت هذه الرواية المراد بهذا المشى:

فليس هو التسكع الواهن الملول.. وإنما.. [انطلق..]

إنه الانطلاق بما يحمل من معانى: السرعة.. والحيوية.. وعلى الخط المستقيم.. فى اتجاه المستقبل.

وهى واحدة من خصائص عباد الرحمن **﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾**.

فليس هو الانطلاق الصاروخى المتوقد.. وإنما هو المضى الواثق المطمئن. على الطريق السوى.. فإذا ناوشهم الجاهلون **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾** غير مبددين إمكاناتهم فى معارك جانبيه يحاول التافهون جرهم إليها.

يد الله مع الجماعة

ولاحظ أنهم ثلاثة نفر. . وفى رواية. . رهط. . وهو ما دون العشرة. .

ويعنى ذلك أن أحدهم لم يخرج فردا. . وإنما فى جماعة. تتعاون على البر والتقوى. .

فهم إذن منسجمون مع حركة الكون من حولهم: فقد تعلمنا من الطبيعة حولنا: أنه قلّ أن يهاجر الطائر وحده. . ولكن مع مجموعته:

تطير مجموعة أعلى. . وتحتها مجموعة أخرى: تضرب بأجنحتها. . فتحدث تيارا هوائيا. . يحمل المجموعة الأعلى. . والتى سوف تسلم نفسها للنوم عبر الرحلة الطويلة. . محمولة على مجهود الزملاء من تحتهم. .

وأثناء الرحلة يتبادل الطير المواقع. . فى تعاون عز نظيره.

والنتيجة؟

يكون الطريق أقصر. . والمتاعب أقل. . والخطر أهون. . ثم سلامة الوصول فى نهاية المطاف.

رحلة العمل.. ورحلة الرفاهية

والرحلة هنا رحلة عمل. . والعمل منوط بالرجل. . وخلوها من العنصر النسائى لا يعنى بالضرورة حرمان المرأة من الاشتراك مع الرجل فى إنجاز مهمة ما. . لكن الأمر يحتاج إلى تفصيل:

فالرحلات السياحية الترفيهية رُبّما كان الاختلاط فيها أدعى للتجاوز والعبث. . بحكم الفراغ. . واتساع الوقت. . وضعف الإشراف. .

ثم بروز عوامل الإثارة من الخضرة والماء والوجه الحسن؟!!

أما رحلات العمل فلا بأس. . بشروطها من دقة الاختيار وصرامة الإشراف والمتابعة. . والقضية قابلة للنقاش. . ذاكرين ما يمكن أن يحدث لو كانت الرحلة مشتركة بين الجنسين. ثم ألجأهم. . وألجأهن الخطر إلى بيت مهجور.

وتترك لنخوة الرجال. . وعزة الإيمان أن تصور بقية الموقف!! ثم تحكم.

[شباب على مستوى المسئولية]:

لم يكن خروج هؤلاء الشباب هروبا من المجتمع.. ورفضا لقيمه..وإنما تقول رواية:

«ألجأهم المطر للغار».

وإذن فلم يكن هو الاعتزال الرافض.. وإنما هي الضرورة الملجئة أحيانا.. ليعود المسلم سيرته الأولى عاملا آملا. مع إخوته من أبناء مجتمعه.

الإيمان الثابت فى خضم العاصفة:

لم تذهب المفاجأة برشد الفتية.. فقد كان ايمانهم أقوى من الموقف الصعب..

ومن صعوبته ما تشير إليه روايات الحديث عن حجم الكارثة من مثل قوله ﷺ: «انطبقت.. فسدَّت».

أى أن الصخرة سدّت الباب تماما.. فلا بصيص من النور هناك..

ومع هذا.. فقد بقى الأمل فى النجاة ماثلا فى قلوب عمرها الإيمان..

سلامة التفكير:

وفى هذا الجو الخانق لم تفارقهم حكمة التدبير.. والتى بدت فى سلامة تفكيرهم والذى ظهر على لسان أحدهم:

«إنه والله لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل واحد منكم بما يعلم أنه صدق فيه».

إنه العقل المؤمن الذى يحتفظ برشده فى كل الظروف والذى يعلم من أمر الله تعالى أنه سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبا..

ثم: **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾.**

وكما جاء فى هذه الرواية التى معنا:

«فقالوا:إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم».

الهدف النبيل

لأنك حى.. فأنت متحرك.. لكن الحركة قد تكون طائشة.. فلابد إذن من ضابط.. ولا ضابط إلا شرع الله تعالى.. والذى يزودنا.. بالبصيرة.. بالضمير الذى يوجه حركتك فى اتجاه الخير..

ثم بالإرادة المصممة التى لا ترضى من الخير ما كان سهلا قريبا.. وإنما تريد الخير الأسنى.. البعيد.. المفيد.. ولا يهم أن يكون هدفك بعيدا..

وأهم منه أن تكون سائرا فى الطريق إليه.. فإن وصلت.. وصلت سعيدا.. وإن تعثرت.. تعثرت رشيدا..

وقد تضنيك مراحل الطريق.. وتكلفك المعالى ثمنا باهظا.. ولا بأس.. فذلك قدر الأذكياء الأتقياء الأوفياء..

والذين ترى أحدهم كما يقول الشاعر:

تراه من الذكاء نحيف جسم	عليه من توقده دليل
إذا كان الفتى ضخم المعانى	فليس يضيره الجسم النحيل

ولقد كان هدف هؤلاء الشباب نبيلا وهو:

يرتادون لأهليهم:

فليست هى رحلة الرفاهية أو العبث.. وإنما هو السعى الدءوب.. والذى يخوضون به تجربة العيش.. على ما فيها من مرارة المعاناة.. وعذاب الاغتراب.. فى سبيل أهليهم وذويهم..

كما وأنها ليست رحلة «بالأمر» فى سبيل فرض رأى بالقوة.. وإنما هى رحلة الشورى.. البادية فيما كان بين هؤلاء الرفاق من طرح المستقبل على بساط البحث.. لعلهم بالشورى أن يصلوا معا إلى بر الأمان.

قيمة الإخلاص

ولاحظ فى دعاء هؤلاء الشباب قول كل واحد منهم:

«... اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه.».

لقد كانت الأعمال هنا ضخمة.. لا يلقاها إلا الذين صبروا.. ومنهم هؤلاء الشباب:

فمعنى البرّ هنا يحمل الابن على السهر طول الليل طوافا وراء الشجر.. ثم واقفا ثلث الليل الأخير يحمل إناء اللبن لا ترتعش يداه.. ثم لا يرتعش قلبه إشفاقا على الصغار الجائعين. ثم خلق العفة تطفئ شعلة الجنس فى وقدته.

والعدل.. لا يطمع حتى فى حبة قمح من حق عامل لم يكن يتصور ما يرى من صور هذا العدل..

كل أولئك لو حدث اليوم.. لكان حديث المدينة.. وقضية الإعلام.. تنويها بهذه القمم.. فى زمان عزت فيه القيم..

ومع هذا.. فكلهم يقولها فى تواضع.. غير ناظر إلى العمل فى حد ذاته ليكون سفينة الفضاء العابرة به إلى العلا.. وإنما.. الأهم من ذلك كله أن يكون قد عمله خالصا لوجه الله تعالى..

لقد اعتبروا أوامر الله تعالى رسائل موجهة إلى كل واحد منهم شخصيا..

فباتوا.. يتدبرون آياته بالليل.. ثم ينفذونها بالنهار..

فكانوا عند الله ذوى أقدار.. فى الوقت الذى يلهو فيه شباب.. هجروا البيت.. هجروا القرآن.. فلم ينتفعوا بهدى القرآن.. والذنب فيهم.. لا فى القرآن

والنجم: تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

أعلى مستويات البر

تحدث أول الرجال داعياً ربه أن يفرج عنهم ببركة ما قدم من بر والديه . .

فما هى أبعاد هذا البر؟

١ـ كانت وظيفته الأساسية أن «يرعى على والديه» . . أن ينفق عليهما . . عن طريق الرعى . . مع ملاحظة أن الوالدين معه فى البيت . . وتحت إشرافه. وليسا فى دار المسنين . . غرباء!

٢ ـ ثم هما [شيخان كبيران] . . فى سن الضعف الذى قد يغرى بالتقصير فى حقهما بعدما وهن العظم منهما . . لكن حقهما فى البر كما هو . . بل ربما كان مضاعفا جبرا لخاطرهما.

٣ ـ كانت الرحلة مضنية بين الأحراش . . وفى ظلمة الليل . . إنه لم يجد طلبته . . فأوغل فى الصحراء وراء الشجر المطلوب وذلك **قوله: فنأى بى طلب الشجر** وهذا سر تأخيره . .

٤ ـ لو أنه أيقظهما . . لكان له عذر . . لكنه من فرط إشفاقه لم يفعل . . حتى تكون اليقظة طبيعية . . وبقى طول الليل حاملا الإناء . . لا يتحرك . . فى ظروف غاية فى الصعوبة . .

٥ـ ذلك بأن أطفاله . . لا يشكون الجوع فقط . . وإنما «يتضاغون» يعنى يستغيثون!!

ثم . . لا يأتيه صراخهم من بعيد . . لكنهم بين يديه وعند قدميه . . ومع ذلك آثر والديه فانتصرت العاطفة على الغريزة.

والمفروض أن هناك زوجة . . وأمّا لهؤلاء الصغار لا يرضيها ذلك الذى يحدث . . لكنه ظل وفيا لقيمة البر فوق كل اعتبار!

٦ ـ وظل هكذا حتى بَرَق الفجر . . واستيقظ الوالدان . .

ولقد كان هذا الصبر . . أو هذا البر مردودًا إلى قاعدة صحية أشار إليها فى قوله: **«وكرهت أن أدعهما فيستكينًا»**.

من المسكنة: أى يضعفا لعدم الشرب . . ذلك بأن ترك العشاء مهرمة . . ولو

لم يتعشيا لأضيرا!

٧ - إن الولد هنا لم يعط الوالد ما يحتاجه .. لكنه أعطاه ما يحتاج هو إليه .. فى شخص أبنائه الصغار.. والصارخين بين يديه!.

الذين يتعرضون لمساقط الغيث

لقد تقدم هذا الفتى بزاده من البر .. من الود.. الود الحقيقى الذى يصدر عن النفس طبعًا .. لا تطبعا.. على ما يقول الصديق المخلص: أرى وُدّكم رسما ووِدّى حقيقة!

وكان على موعد - هو ورفاقه - مع الفرج..

فقد رفع العمل الصالح الصخرة .. التى انفرجت .. وبدت تباشر الفرج..

الفرج.. الذى يهبط كالغيث على أرض خصبة صالحة للزراعة.. وكم سعد رفاق السلاح بهذه الفرجة..

بل إنهم لأسعد من أناس لهم أعمال اليوم كبيرة.. لكنها عاجزة عن الصعود.. لأنها مشدودة إلى الأرض إنهم. لا يعلمون .. ولا يشعرون..

لقد حرصوا على رفاهيتهم .. بهذه الأعذار الواهية وبخلوا .. فلم يتنازلوا عن حظوظ أنفسهم وأولادهم فى سبيل الحق.. ثم تنازلوا عن كل ما يليق بالرجال فى سبيل شهواتهم..

ومن ثم تركوا مواقعهم بين الرجال.. لتكون الحياة لهم سجنا كبيرا .. لا يحسون معه بطعم العزة.. عزة الطاعة .. فما أبقى لهم ذل المعصية إحساسًا!!

تكامل الفضائل

انفرجت الصخرة .. لكنهم لا يستطيعون الخروج..

ذلك بأن فضيلة البر على أهميتها .. لا تتم بها النعمة كمالا .. حتى تعززها قيمة العفة .. وقيمة العدل .. وعندئذ فينكشف الكرب..[1].

---

(١) إن المرأة التى تصوم وتصلى. ثم تؤذى جيرانها - والفتاة المكشوفة الرأس لكنها تعبد ربها.. والبرنامج الدينى يضج بالأناشيد والتواشيح وفى نفس اللحظة يذاع حفل رقص فى مكان، كل أولئك مرفوض! لأنه تناقض.

ترددت الفتاة على ابن عمها ثلاث مرات . . تطلب شيئًا من معروفه . . بعد أن ألمت بها ضائقة. . أفقرتها بعد غنى. . وكان يأبى عليها . . إلا أن تمكنه من نفسها. . وهى ترفض إلا فى المرة الثالثة عندما كان البديل هو الموت. .

وإذن . . فليست محترفة . . بدليل أنها لم تقصد غريبا . . وإنما قصدت من لا تظن به سوءا . . وهو ابن عمها. .

وفى رواية:

«فلما كشفتها أرعدت من تحتى.. فقلت: مالك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت: خفتيه فى الشدة.. ولم أخفه فى الرخاء ؟!!».

ومع أنه:

أ ـ تمكن منها.

ب ـ مع أنه يحبها أشد ما يحب الرجال النساء

جـ ـ إلا أنه قام عنها لله تعالى.

وكان بهذه الإرادة الصلبة أفضل الثلاثة. .

وهذا ما لاحظه العلماء الذين قالوا: وإنما كرر «اللهم» فى هذا الموقف دون غيره: لأن هذا المقام أصعب المقامات وأشقها:

فإنه ـ ردع لهوى النفس خوفا من الله تعالى ومقامه. قال تعالى﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾» [النازعات: ٤٠ـ٤١].

قال الشيخ أبو حامد:

«شهوة الفرج أغلب الشهوات على الإنسان. وأعصاها عند الهيجان على العقل.

فمن ترك الزنا خوفا من الله، مع القدرة. وارتفاع الموانع، وتيسر الأسباب. . لا سيما عند صدق الشهوة. . نال درجة الصديقين.

لقد راودها عن نفسها: خادعها. . برفق وحيلة. . ثم زاد من عنده عشرين

على المائة التى طلبت.. وتهيأت كل الأسباب..

لقد كانت الغريزة مشتعلة.. ويوشك الانفجار المدمر أن يقع .. حين أمسكت وحدها بزمام الموقف..

فلمّا تفجر فى القلب ينبوع الإيمان .. أطفأ فى الغريزة سعارها .. ثم حول سيرها فى اتجاه الخير تماما كغاز الأيدروجين:

إنه غاز مشتعل.. فلما أضيف إليه.. الأكسجين صار معا ماء باردا بقدرته سبحانه والتى جعلت من المادة المشتعلة بردا وسلاما..

وهكذا تحولت لحظة الضعف قوة. ومن كان ضعيفا.. فليكف عن معاصى الله.

وكذلك فعل الفتى الأبى التقى: ولو أنه كف عن قرار الزنا بموعظة.. بينما الفريسة منه بعيداً لكان تقيا. .لكنه أقلع عنها.. وقد تمكن منها.. فكان كإخوة له على طريق التقوى.. حطموا كئوس الخمر فى اللحظة التى لامست شفاههم.. فتحولوا بالإرادة الحرة خلقا آخر.

ولاننسى دور الفتاة التى لم تكن عنقودا مدلى على قارعة الطريق. والتى عبّرت عن أصالتها بذهابها لحظة حاجتها إلى ابن عمها بالذات.. دون غيره من ذئاب البشر.

ولاحظ: كم تسمع من يقول اليوم: اتق الله.. لكنها لا تؤثر.. وإنما أثرت لأنها خرجت من قلب تقى!!

ثم لا حظ ثانيًا: التوقيت: فلو أنها قالت له من قبل تق الله.. لما تأثر.. لأن غشوة الشهوة مانعة.. وإنما تهيأ المسرح.. وبدا حجم الجريمة.. وانكشفت العورة.. فكان الإحساس عميق بمضاعفات الموقف. فلما قالت له اتق الله حسمت القضية.

قيمة العدل:

أما قصة الأجير . فقد وردت من حديث النعمان بن بشير عن أحمد:

قال صاحب العمل: كان لى أجراء يعملون. فاستأجرت كل رجل منهم بأجر

معلوم. فجاء رجل ذات يوم فى نصف النهار. فاستأجرته بشَطر أصحابه. فعمل فى نصف نهاره. كما عمل رجل منهم فى نهاره كله.

فرأيت علىّ ألا أنقصه مما استأجرت به أصحابه. لما جهد من عمله. فقال رجل منهم: تعطى هذا مثل ما أعطيتنى. فقلت: يا عبد الله لم أبخسك شيئًا من شرطك. وإنما هو مالى أحكم فيه بما شئت. قال: فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه».

ثم عاد يوما ليجد أجرته التى كانت «فرقا من الأرز» ليجدها رضيعة وبقرا وغنما وزرعا!!»

وبهذا العدل.. انفرجت الصخرة.. وعاد الفتيان إلى الحياة مرة أخرى..

ماذا تعنى قيمة العدل:

إن العدل يعنى:

١ ـ توفر الثقة بين طاقة العامل.. وصاحب المال.

٢ ـ وجود فرص التنافس الشريف.. ثم ما يترتب على ذلك من وفرة النتاج.. وجودته أيضًا بقدر ما يؤدى غياب العدل إلى:

تقدم أهل الثقة.. وأصحاب الواسطة.. من الفارغين العاطلين من حلية الأخلاق..

وعلى أى حال: فقد تبسم العامل الكادح ابتسامة.. ربما لم يشرق بها وجهه من قبل..

صعدت البسمة لتكون فى عينيه دموعا.. تجمدت الدموع من الفرح.. ثم تحولت إلى مرآة صقيلة عكست كل ما فى قلبه من بهجة بهذا العدل الذى لا يقرؤه سطورا فى كتاب.. أو أسطورة فى قصة.. ولكنه العدل وفى قمته.. والذى يعيشه فعلا..

أما بعد: فقد قلت للمسئول الكبير: أزمتنا هذه العاصفة.. ليس لها من دون الله كاشفة!

قال المسئول: إذا كنت تريد أن تعظنى.. فالقضية ليست قضية وعظ.. أو

تقوى. لأن الحكم شيء - وتقوى الحاكم شيء آخر هذه نقرة.. وتلك نقرة!

قلت له:لكن الحديث الشريف بيَّن الصلة الوثقى بين إنقاذ الأمة من ورطتها.. وبين درجتها فى سلم التقوى..

ألم تسمع إلى قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار.. فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار.. على نحو تنحسر معه كل دواعى الأمل فى النجاة..

ولكن الله تعالى.. كشف الغمة.. ونجاهم بما عملوا من الصالحات..

وأزمة أمتنا لن تبلغ مهما استحكمت حلقاتها.. إلى مثل ما وصل إليه حال هؤلاء الثلاثة..

فإذا كان الله تعالى قد نجاهم بعد أن فقدوا كل أمل فى النجاة.. فكيف لا نحاول نحن أن نعتبر.. مستعينين بالصبر والصلاة لنصل إلى مثل ما وصلوا..

إن أزمة أمتنا راجعة فى أصولها إلى:

أ - تفكك الروابط الأسرية.. وغياب فضيلة البر.

ب - ثم جفاف قيمة العفة بإشاعة الإباحة والتحلل.

جـ - ثم ضُمور قيمة العدل.. الذى هو أساس الحكم. فضاعت الثقة.. وتخلخل الصف المؤمن..وترتب على ذلك كله الخوف من المستقبل.. والخوف على الحياة..

وإذا كان الأمر كذلك.. فالحل فى يد الحاكم والمحكوم: فهما معا مسئولان عن التمكين لهذه القيم بما يملكه الحاكم من مناهج التربية والتعليم.. وما تحت يده من وسائل الإعلام..

ثم برجاله الذين ينفذون خطته.

فإن هو فعل.. فسوف يتجاوز بنا المحنة.. وسوف تنزاح الصخرة.. وتنفرج الأزمة..

تنفرج بمثل هذه القيم:التى تمتد فى الأرض.. رسوخا. ثم تطاول السماء.. شموخًا!

كرم الضيافة

عن أبى شريح خويلد بن عمرو رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. جائزتُه يومٌ وليلة. والضيافة ثلاثة أيام. فما كان بعد ذلك فهو صدقة. ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يُحرجه» رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

والحديث فى الترغيب ج ٣ برقم ٣٨١٤.

تمهيـــــد:

كرم الضيافة خلق أصيل فى الطبيعة العربية.. وتستمد أصالتها مما يأتى:

أ - طبيعة العربى المفطورة على النجدة. والمروءة.

ب - البيئة الجافة التى كان يعيش فيها .. والتى اتسمت بندرة الماء والغذاء..

جـ - تباعد المسافات .. وبطء النجدة.. وحياة هذا شأنها لا يمكن استمرارها إلا بالتعاون والكرم..

ولقد وصل الأمر بالعربى إن كانت أمنيته: ذلك الكرم الأصيل:

كان رجل من الكرماء يمد مائدته لأضيافه. وبعد فراغهم من الأكل يرفع يديه إلى السماء يقول:

اللهم: إنى لا أصلح على القليل. ولا يصلح القليل لى.

اللهم هب لى حمدا ومجدا. لأنه لا حمد إلا بفعال. ولا مجد إلا بمال... إنه ليس ذلك الذى أعطى قليلا.. ثم أمسك .. وإنما يريد بحرا من الثراء.. تسبح فيه سفنه.. ودائما!

ولذلك كان من شعار العربى: إذا ضربت.. فأوجع. وإذا أطعمت.. فأشبع.

ولم يكن من مفاخر العربى حينئذ أن يقول: أنا ابن من عرض عليه المنصب.. فأبى!

وإنما كان فخره ومجده فى قوله: أنا ابن من لم يأكل طعاما وحده قط!!

حتى يظل الكرم شعارا:

كان حاتم الطائى من الكرم فى الذروة . . ولكى تظل سليقة الكرم باقية فى عقبة. نراه يؤنب ولده عديا لأنه ضرب كلبة له تدل الضيفان عليه فقال له يوما:

أقول لا بنى وقـــد سطّت يداه　　　بكلبـــة ما يـــزال يجلدهـــا

أوصيك خيرا بهـــا فإن لهـا　　　عندى لها يدا لا أزال أحمــدها

تدل ضيفى علىّ فى غلس الليل　　　إذا النـــار نـــــــام موقدها

ولاحظ أنه ينهاه عن إيذائها لتظل صالحة لأداء وظيفتها دليلا بين يدى الغرباء. .

ثم قارن ذلك بما يحدث اليوم من تدليل الكلاب إلى الحد الذى يؤثر صاحب الكلب. يؤثره بما له بعد موته. . ثم حرمان الإنسان فى نفس الوقت!.

وكان هاشم جد الرسول ﷺ كريما: ليس مع البشر فقط. بل كان يطعم الطير. والجوارح فى الجبال [له راحتان]: الحَتفِ والجود فيهما

أبى الله إلا أن يضروينفعا

أبعاد إكرام الضيف

لم يكن قصارى العربى لقيمات يقمن صلب الضيف. . ثم تنتهى مسئوليته. .

بل كان يحميه إلى الحد الذى تقوم فيه المعارك انتصارا لكرامة الضيف.

وقد قالوا فى سبب معركة ذى قار: أن هانى بن مسعود الشيبانى. رفض أن يسلم لكسرى الفرس أمانات ضيف استودعها عنده.

وقالوا عن سبب حرب البسوس: قَتَل كليب سيد ربيعة ناقة ضيفه عند جساس بن مرة فعدها جساس إهانة له. فقتل كليبا!!

ولقد كان من قوة تمسكهم بالكرم . . ما كان منهم من نقد لاذع جارح لكل من لم يتخذ من الكرم سليقة وطبعا. . ومن ذلك قولهم سخرية من البخل والباخلين:

يقتِّر عيسى علـــى نفسه	وليس بباق ولا خـــالد
ولو يستطيـــع بتقتيره	تنفس من منخر واحد!!

وناهيك بتلك السخرية تطلقها قبيلة تعريضا بأخرى .. فيقول شاعرهم منددا ببخلها:

أقاموا الديدبان على يفاع وقالوا: لا تنم للديدبان.

إذا أبصرت شخصا من بعيـد	فصفق بالبنـــان علـــى البنان
تراهم خشية الضيفان خـرسا	يؤدون الصلاة بـــــلا أذان!!

الضيافة في ظل الإسلام:

أولى الإسلام الضيافة ما يليق بها من عناية ورعاية .. فقعد قواعدها . ووضع آدابها .. ثم وصل بها إلى مايمكن أن يسمى .. «قانون الضيافة » كما ذهب إلى ذلك شيخنا د. محمد سعاد جلال رحمه الله تعالى .

قانون الضيافة :

قال: والضيافة حق ثابت. لكل فرد. فى عنق المجتمع كله .. وحق الجماعة مقدم على حق الفرد.

وقد يستبد بالرجل إحساس بحقه فى ماله الذى يجب أن ينفرد بحق التصرف فيه .. مانعا الضيف حقه ..

ويجىء «قانون الضيافة الإسلامى ليحسم الموقف. ويحل المشكلة بما يحفظ حق المجتمع فى الإكرام .. ممثلا فى الضيف القادم .

ولاحظ أن الحديث الشريف لم يقل :من كان عربيا . . أو من كان شرقيا . . أو غربيا . . فليكرم ضيفه . .

وإنما جعله حقا مشتقا من عقيدة المؤمن بالله تعالى . . ثم بما يكون فى الآخرة من حساب لايفلت منه من قصر فى حق الضيف . .

ومن هنا يأخذ الاحتفاء بالضيف عنصره الإيمانى الذى يجعل من هذا الحق لازما بيننا بالمعنى الأخص لايجوز التفريط فيه . . على النحو التالى :

١ ـ إذا حضر الضيف بساحة قوم . . فأبوا أن يضيفوه . . فله أن يأخذ من زروعهم أو أموالهم على قدر حاجته . .

يأخذه وبلا حساسية . . لأنه حقه المكفول له شرعا .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أيُّما ضيف نزل بقوم. فأصبح الضيف محروما. فله أن يأخذ بقدر قِراه ولاحرج عليه**» رواه أحمد (الترغيب رقم ٣٨١٦ح٣) .

ولاحظ أنه الحديث يقول :«**فله أن يأخذ ..**» .

يأخذ . . وبرفق . . وحياء . . فلا ينتهب ولا يغتصب . . لينشئ معركة هى فى النهاية إخراج له . . مهما كان حقه لازما . .

فإن أخذ حقه فبها . . وإلا . . فقد بقى دينا فى عنق المضيف لايسقط بالتقادم:

قال ﷺ :«**ليلة الضيف حق على كل مسلم :فمن أصبح بفنائه فهو عليه دين: إن شاء قضى وإن شاء ترك**» (رواه أبو داود وابن ماجه) .

ومن دلائل الحكمة في مطالبة الضيف بحقه أن السنة تحرض المجتمع على أن يشكل رأيا عاما ضاغطا يتدخل ليأخذ بحق هذا الضيف المحروم . . ممارسة لحق الجماعة من جهة . . ومن جهة أخرى منعا للصدام بين الضيف والمضيف .

قال ﷺ :«**أيُّما رجل أضاف قوما . فأصبح المضيف محروما . فإن نَصْرَه حق على كل مسلم حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله**» (رواه أبو داود والحاكم) .

معنى الإكرام :

يكون الإكرام : ماديا . . ويكون أدبيا

ويسقط الحق المادى إذا قدم المضيف ماعنده . . قل أو كثر . . ويقف الإسلام إلى جانب المضيف والضيف معا . . حتى لايستقل صاحب الدار ماعنده استقلالا قد يمنعه من تقديمه . وحتى يتقبل الضيف قراه من الموجود شاكرا ذاكرا . .

دخل على جابر رضى الله عنه نفر من أصحاب النبى ﷺ فقدم إليهم خبزا وخلاً. فقال :كلوا. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نعم الإدام الخل: إنه هلاك بالرجل أن يدخل إليه النفر من إخوانه فيحتقر مافى بيته أن يقدمه إليهم، وهلاك بالقوم أن يحتقروا ماقدم إليهم»** (رواه أحمد والطبرانى وأبو على) .

الإكرام الأدبى :

من مجموع الأحاديث الواردة فى هذا الباب تبدو لنا منظومة من الآداب التى تحفظ للضيف كرامته :

١ ـ استقبال الضيف . . بالبشاشة عند عتبة الدار . . كنوع من الاهتمام به . . **«تبسمك فى وجه أخيك صدقة»** .

٢ ـ أن يأكل مع الضيف . . الذى يستحى أن يأكل وحده :إنها مؤانسة تذهب بوحشة الضيف الذى لو أكل وحده لكان فى نقطة الضوء . . تراقبه العيون.

ولسوف يعلم من فى الدار كم أكل . . وماذا ترك . الأمر الذى لايحدث لو شاركه رب البيت طعامه .

٣ ـ من السنة مباسطته . . ففى هذه المباسطة مغفرة لذنوبه حتى لو ألقى إليه بالوسادة تلطفا وتوددا .

روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: **«مامن مسلم يدخل على أخيه المسلم فيلقى إليه وسادة إكراما له إلا غُفر له»**.

٤ ـ الإحساس الطافح على الوجه بشرا حين يعلم المضيف أن قدوم الضيف خير وبركة .

فقد ورد فيما رواه . . أبو الشيخ: الضيف يأتى برزقه. ويرتحل بذنوب القوم.

فانظر كيف كان قدوم الضيف سببا فى غفران الذنوب . . فى يوم يكون لأهل الدار عيدا. بالإضافة إلى البركة فى الرزق. بسبب منه.

٥ ـ ومن السنة تشييع الضيف إلى عتبة الدار . . وإن كان شخصية مهمة فإلى منزله كما كان يفعل ﷺ مع كبار زواره .

ويعنى ذلك أشعار الضيف بأنه فى بالنا دائما . . وأنه فترة إقامته لم يكن حملا ثقيلا يراد التخلص منه . . وإنما : نحن نودعك. متعلقين بك. شاكرين فضل زيارتك. آملين فى عود حميد.

وفى سنن البيهقى : أن رسول الله ﷺ قال: « **إن من السنة تشييع الضيف إلى باب الدار**» .

٦ ـ ارتفع الإسلام بإكرام الضيف الذى يصير فيه إكرام الضيف إكراما لله سبحانه وتعالى : وقد روى «**من أكرم أخاه المسلم. فإنما يكرم الله**» رواه ابن بابويه.

واجب الضيف :

قد يكون المضيف صاحب مروءة . تغلبه أريحته فلا يحرج الضيف الذى قد يستمرئ القعود فى البيت .

من أجل ذلك ـ وكما ناب الإسلام عن الضيف فدافع عن حقه في الضيافة ـ فإنه وبنفس القوة ينوب عن صاحب الدار فى تحديده للإقامة التى تتردد بين يوم وليلة . . وثلاثة أيام. . حتى لايتضرر . . فقد يكون الضيف مجتازا . . عابر سبيل . . بلا موعد سابق . . وإذن فإقامته محددة بيوم وليلة يلم فيهما شعثه ثم يستأنف رحلته من بعد . .

أما إذا كان الضيف قادما طبق موعد سابق . . ولحاجة مهمة . . فله أن يقيم ثلاثة أيام . . من حيث كان هناك استعداد لهذه الإقامة . . ولايحل له أن يقيم أكثر من ذلك .

وإلا . . فإن بلادة شعور الضيف عندئذ . . ستفرض على أهل الدار أمورا لاتليق .

ومن الوفاء تقدير ذلك . . وإعفاء القوم من الوقوع فى خطأ هو سببه . .

ثم إن رحيل الضيف إنقاذ لسمعته هو أولا . . وقد قالوا: الضيوف كالسمك: تتغير رائحته بعد ثلاثة أيام !!

فليبق الود موصولا :

إن إن دخول المؤمن علي المؤمن تُرعة . . أى سرور ومتعة فلنحافظ على هذه العواطف الكريمة فلا نحرج أهل الدار . .

وقد حفل تاريخنا الإسلامى برجال رفضوا ابتداء أن يحملوا منَّة من أحد . . وفضلوا اللقمة بحصاة الملح . . على أن يكونوا عالة على غيرهم :

قال الحجاج لخادمه وقت الغداء :التمس لنا من يأكل معنا .

فخرج فوجد أعرابيا. فكان هذا الحوار :

عرض الخادم على الأعرابى الغداء مع الأمير (والعرض سخى ومشرف) قائلا له:اغسل يديك وتغدّ .

فقال له الأعرابى :دعانى من هو خير منك .

من ؟قال: الله تعالى

فى هذا اليوم الحار؟ . . أفطر اليوم وصم غدا .

فقال: وهل تضمن لى أن أعيش إلى غد؟

ليس ذاك لى .

كيف تقدم لى عاجلا بآجل لا تملكه ؟!!

وهكذا تعبر العزة الأبية عن نفسها فى ظروف صعبة . . مايلقاها إلا الذين فضلوا أن يعيشوا أحرارا . . ولو باتوا على الطوى . .

وهذا الفقير نفسه هو هو الذى يجود فى ساعة العسرة مؤثرا غيره على نفسه:

حضر مبعوث «نابليون» مع مترجمه السورى إلى بادية الأردن . . فاستقبلتهما عجوز . . فوفرت لهما المأوى . . ثم ذبحت عنزتها الوحيدة على شرف ضيفيها. وعندما سألاها: ياجدتى: لماذا هذا التبذير؟ قالت: (إذا دخلتما دار شخص يعيش ولم تجدا عنده كرم ضيافة. وحسن وفادة فكأنكما قمتما بزيارة الأموات فهل تظنانى كذلك)؟! .

الأصيل الأصيل :

والأصل الأصيل فى التمكين لهذا الكرم ماجاء به القرآن الكريم من مثل ماحكاه سبحانه وتعالى من قصة الخليل عليه السلام .

قال تعالى: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾** [الذاريات : ٢٤ ـ ٢٧] .

مظاهر الكرم:

١ ـ بشاشة الوجه .

٢ ـ الإجلاس فى أحسن المواضع .

٣ ـ راغ : حركة سريعة سرية حتى لايشعر الضيف . فيكفَّه .

٤ ـ ثم انتقى أغلى ماعنده .. بلا تكلف !

٥ ـ ووضعه بين أيديهم .

٦ ـ ثم تلطف .. ولم يكلف : **﴿ألا تأكلون﴾**؟

٧ ـ بمجرد السلام .. بدأ الكرم .

٨ ـ مع أنه لايعرفهم .

٩ ـ كان الطعام وفيرا مع أنهم كانوا ثلاثة .

١٠ ـ وتقول الروايات : إنه قام على رءوسهم يخدمهم بنفسه مبالغة فى إكرامهم .

١١ ـ ولاحظ من صور الكرم رد السلام على لسان الخليل عليه السلام:

فسلام الملائكة : جملة فعلية .. تفيد مجرد التجدد والحدوث .. أما سلامه هو: فقد جاء جملة اسمية تفيد مع التجدد الدوام والثبات .. جبرا لخاطرهم وإشعارهم بأنهم فى بيتهم الثانى !!

الضيافة اليوم :

نعيش هنا تجربة المجربين الذين يسجلون واقع الأمة الإسلامية اليوم .. فماذا قالوا .. بل ماذا شاهدوا ؟

١ ـ صارت الضيافة عبئا ثقيلا بما قيدوها به من سلاسل وتقاليد . . حتى صار الشعار لدى بعض الناس :

اغرق فى الدين . . لكن اظهر أنك مقتدر ؟!

٢ ـ من العجيب أن السلع قد تكون متوفرة فى بلد من بلاد الدنيا لكن الطعام فى البيت محدود . .

أما عندنا فالسلعة نادرة . . لكنها فى البيت متوفرة. ومازلت أذكر مشهد الزوجة الأوربية التى جلست تبكى على مسمع من زوجها العربى المسلم . . والذى سألها عن سر بكائها : فكان هذا الركام . . أو هذا الطعام الذى يكفى لأضعاف أضعاف الضيف . . الذين لن يأكلوا إلا عشر مابين أيديهم !!

٣ ـ يقسم الداعى إلى الوليمة ليؤكد عزمه وحرصه على قبول المدعو ولكن كثرة الحلف تعنى أنه يخفى شيئا. . بالإضافة إلا أنه لم يصن اسم الله تعالى :

٤ ـ وقد يحلف بالطلاق . . فيجنى على الزوجة . . إن لم يستجيبوا . . وقد يبر فى يمينه فتشقى الزوجة أيضا :

بما يسبق الوليمة من هم، ومايصاحبها من غم، وما يعقبها من عناء .

٥ ـ يدعى الأغنياء . . ويترك الفقراء . . فى شر الولائم التى لايدعى فيها المستحق . . ويدعى المستغنى . . يدعى الشبعان . . ويهمل الجائع .

٦ ـ يكون الاختلاط سبيلا إلى التبذل. وفعل ما لا يليق . لاسيما النساء يأتين فى أبهى حللهن . . ولا يذكرون الله إلا قليلا .

٧ ـ وتسفر النهاية عن الندم . . والتلاوم . . والعتاب . . أن فضل رجل على رجل . . وأمة على أمة . . فتضاف إلى خسارة المال خسارة الرجال . . ويالها من صفقة خاسرة .

وآخر دعونا

أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة